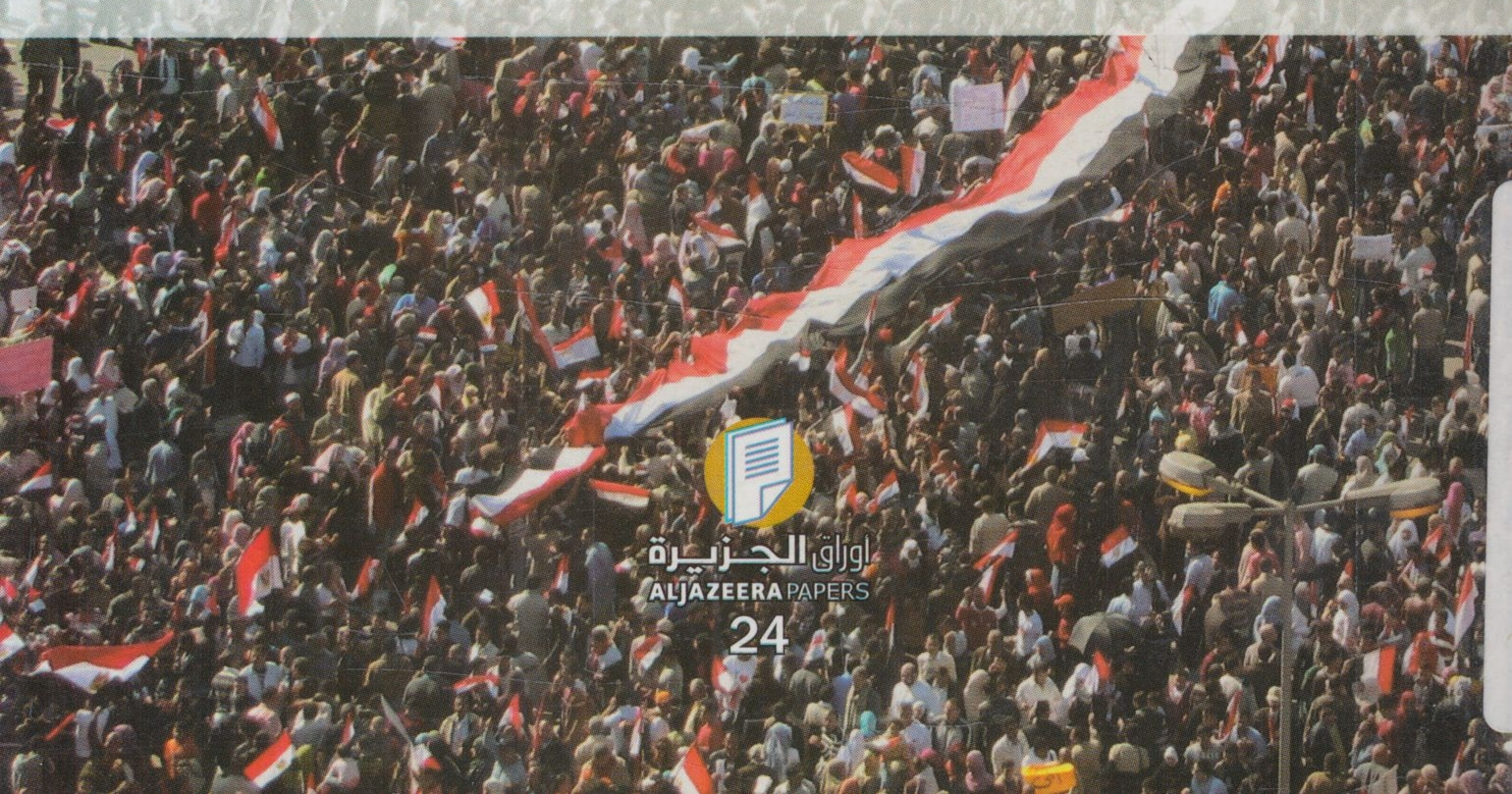




يوميات الثورة المصرية
يناير 2011

المشاركون:
ممدوح الشيخ عمرو مجدي
محمد بدوي عبد الرحمن عياش
نغم نبيل عمر عمرو سلامة القزاز
ياسر علام

تحرير:
أحمد عبد الحميد حسين



يوميات الثورة المصرية
يناير 2011

سلسلة أوراق الجزيرة (رقم 24)

يوميات الثورة المصرية
يناير 2011

المشاركون:

ممدوح الشيخ عمرو مجدي

محمد بدوي عبد الرحمن عياش

نغم نبيل عمر عمرو سلامة القزاز

ياسر علام

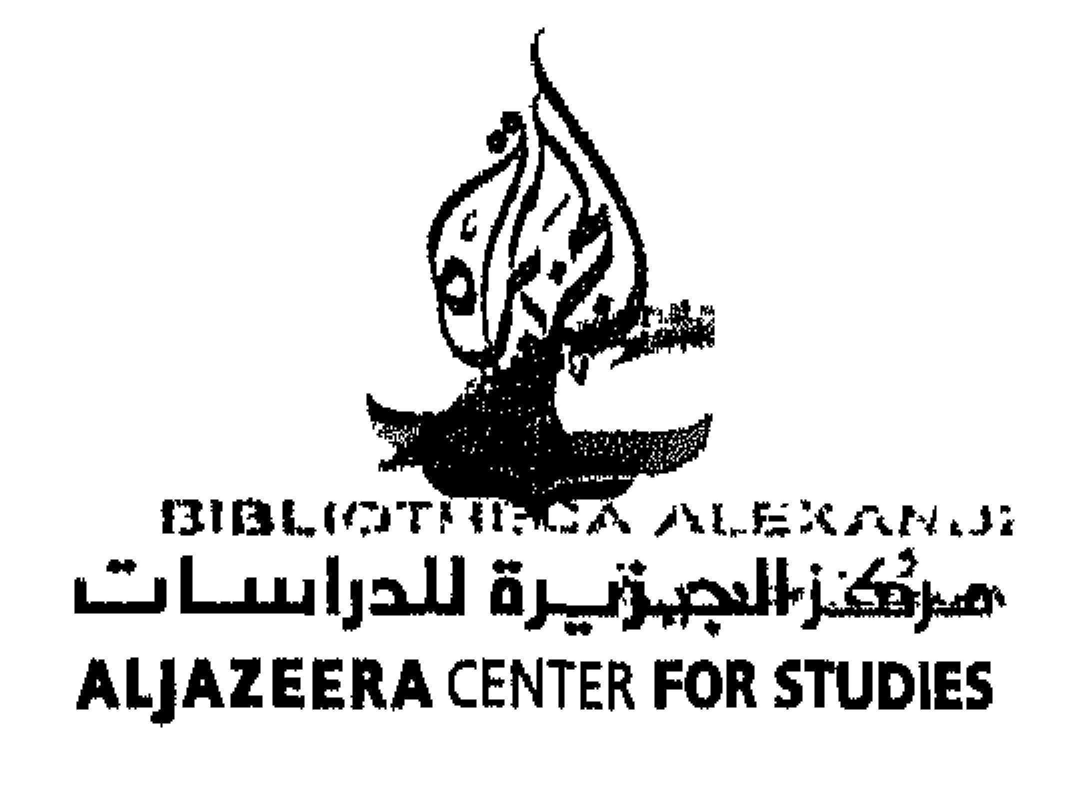
تحرير:

أحمد عبد الحميد حسين

إشراف:

مركز الجزيرة للدراسات

قسم البحوث والدراسات





بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

1432 هـ - 2011 م

ردمك 978-614-01-0320-7



الدوحة - قطر

هواتف: 4930181 -4930183 -4930218 (974+)

فاكس: 4831346 (974+) - البريد الإلكتروني: E-mail: jcforstudies@aljazeera.net

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)

ص. ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

دخل خالد سعيد إلى قبره الحقيقي،

وخرجنا نحن من قبورنا الوهمية..

قادنا خالد سعيد وبوعزيزي إلى أن تقول آه..

أن نصرخ.. وأن نجعل المتسلطين يقولون:

أنا فهمتكم

إهداء

إلى دماء الشهداء، ومعاناة آلاف المصابين.

إلى تعب الساهرين ليلا بجوار عمارات وجنائن التحرير.

إلى العجائز والمشايخ في الخيام.

وإلى اللجان النوعية.

إلى فتيات حملن الضمادات وقوارير المياه.

إلى الجرحى والمناضلين.

إلى أطباء المستشفى الميداني،

والفتية الحُرَّاس على متاريس الشوارع.

إلى فناني الثورة وكل ثائر سطَّر بقلمه أو هاتفه

حدثا عن الثورة.

إلى ثوار الإسكندرية والسويس والمحلة...

وكل الثوار الذين صنعوا في أماكنهم ميادين للتحرير..

إلى الجنود المجهولين..

إلى خالد سعيد... محمد بوعزيزي...

وإلى الشعب

المحتويات

مقدمة

قيم الثورة المصرية

منذ اليوم الأول للثورة كانت صدمة السياسيين والمحللين والناشطين التقليديين، طوفان من البشر يدفعه طوفان من الوعي التلقائي، شارع لم يتعلم معنى التظاهر السلمي قابل القمع الأمني ورصاصات الجنود بالورود والهتافات السلمية، وفي الميدان لم يُرفع شعار أيديولوجي أو جبهوي أو طائفي، رغم أن الميدان امتلأ مرات ومرات بالأيديولوجيين والجبهويين وطوائف من هنا وهناك. كانت الثورة يافطة الجميع، وأيديولوجية الميدان، والطائفة التي انضم إليها المسلمون والمسيحيون واليساريون والإسلاميون والليبراليون والأهم.. المستقلون.

لم يتجاوز الشارع السياسيين وحسب، وإنما تجاوز مرحلة الوعي ليخلق قيما خالصة له وحده وكأنه ولد على متاريس الثورات، وُلد وقد رُكبت في ذهنه خريطة معلوماتية قاد بها الثورة، وقاد بها السياسيين ليتصدر وحده الفعل الثوري، وليترك لكثير من السياسيين القدامى كاميرات الإعلام، وأفخاخ التفاوض، وشرف الجلوس على طاولة النظام..!!

الدين لله.. والثورة للجميع

قبيل الثورة كان "التعصب" عنوانا يطل برأسه بجوار العنوان الأبرز الموجود على الساحة.. "الاستبداد"، قرينان متلازمان عندما

اختفى أحدهما ذاب الآخر، فالتعصب كان يشرب من مياه الاستبداد، والاستبداد كان القوة الدافعة لأمراض شتى أبرزها وأهمها التعصب والطائفية.

شهدت الثورة اختفاء الطائفية والتعصب، وتجلت الوحدة الوطنية في مشهد عفوي لم تشهده مصر منذ فترة بعيدة: قساوسة يأمرون حراس الكنيسة بحراسة المواطنين ومجابهة اللصوص، ومساجد ومستشفيات تابعة لها تفتح أبوابها لتلقي المصابين، المسلمين منهم والمسيحيين.

مسلمون ومسيحيون وقفوا يدا بيد وشكلوا دروعا بشرية لحماية بعضهم بعضا في غيبة رجال الأمن، في الوقت الذي صلوا فيه معا أثناء الاحتجاجات في ميدان التحرير بوسط القاهرة، وإلى جانب اللافتات التي كانت تطالب مبارك بالتنحي وإنهاء حالة الطوارئ، رفع المحتجون لافتات تحمل صورا لعلم مصر عليه الصليب والهلال معا في استعادة لمشهد ثورة 1919 الذي كان حتى وقت قريب مشهدا "يوتيوبيا" يتم استحضاره للبرهنة على ما كان.!

أثبتت الثورة أن التعددية والتسامح تظهر في وطن لا تمارس فيه تياراته السياسية دورا "استقطابيا" أو "فئويا"، حينما تصير قضايا مثل: التحرر، الوحدة، الحرية والبناء قضايا وطنية وهدفا واضحا للجميع. بينما يظهر التعصب والكراهية في عصور الانحطاط، والانحلال، والاستبداد السياسي.

سقط الاستبداد فسقطت معه الحزبية والجهوية والطائفية و"الأنا" و"الآخر" وخرافة الدولة الدينية، وقامت الحرية فقامت معها التعددية والتنوع والوحدة و"نحن" و"الجميع" و"الوطن" و"مصر" والدولة المدنية.

مات في الثورة مينا وبطرس ومحمد الصاوي وسالي زهران وكريستين سيلا وحمادة لبيب وفؤاد عبد الملاك، وليزا محمد حسن وآخرون، مسلمون ومسيحيون ماتوا من أجل الوطن، لكن الوطن لا يعرف سوى أنهم مصريون.

في جو الحرية ظهر تلاحم نفسي بين مسلمي الوطن ومسيحييه، كلٌّ وقف ساعة الثورة على أرضية واحدة: مطلب الحرية وانتزاع عبودية المخلوق لعبودية الخالق، هدفان يطلبهما ثنائيان، وثنائيان يجمعهما هدف واحد، يعبر عنهما آذان يتردد، وترانيم تصدع في أرجاء العالم اليوتيوبـــي الجديد.. "ميدان التحرير".

كان البعض يحلم بنموذج "لاهوت تحرير" مصري يؤمن فيه مسيحيوه ومسلموه بالحرية قبل الشريعة، وبالإنسان قبل الدين، لاهوت تحرير يؤمن بأن الدين في أصله وجوهره ثورة، وأن كلمات ثورية مثل "أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر" و"الإيمان الذي يكتفي بحضور قداس الأحد، ويرضى بالظلم طوال الأسبوع. هو إيمان لا يقبله الله". كلمات يجب أن تتصدر المشهد لتصبح إضاءات ومعالم لتغيير قادم، فالكثير لم يتوقع أن يرتفع سقف التغيير لثورة.. فصنع الشعب وحده تيارا ثوريا دون مشايخ تعارض، أو قساوسة تهتف.

أيها الأقوياء انتبهوا.. النيوميديا تحاصركم

مع الثورتين التونسية والمصرية حضرت أدوار المواقع الاجتماعية والإعلام الجديد بشكلها الكامل، الذي تجلى جزئيا في الاحتجاجات الاجتماعية والسياسية وجزء كبير من الحراك السياسي في منطقة الشرق الأوسط على العموم، ويمكن هنا استحضار دور موقع "تويتر"

في أحداث ما بعد الانتخابات الرئاسية الإيرانية الأخيرة في يونيو 2009.

في الثورتين المصرية والتونسية كسرت "النيوميديا" احتكار الأنظمة السياسية للصورة واللقطة المعبرة والمونتاج السياسي، ومع "النيوميديا" سقطت إلى حد كبير سردية الإعلام الموجه -حتى لو أثر التليفزيون المصري الرسمي نسبيا على بعض قطاعات الشارع المصري في أحداث الثورة خصوصا في أيامها الأولى، فعدد القنوات المعبرة عن الشارع صار بحجم وبعدد النضالات والاحتجاجات التي توجد بداخله، لتصبح "النيوميديا" سلاح المستضعفين والمقهورين، واللعنة التي وقعت علي رأس الأنظمة السياسية من حيث لا تدري.

في ثورتي تونس ومصر، كانت "النيوميديا" حاضرة بشكل كبير، خصوصا في الحالة المصرية حيث تعد ثورة الخامس والعشرين من يناير ابنة خالصة لهذا العالم الحداثي الجديد بكل أدواته وآلياته، يمكن هنا استحضار نموذجين شهيرين في الثورة سيتم الحديث عنهما في اليوميات، صفحة خالد سعيد، وشبكة "رصد" الإخبارية.

"الفيسبوك" قام بدور الحزب البديل في الوقت الذي سقطت فيه الأحزاب السياسية الكلاسيكية، وعجزت عن القيام بأي دور حقيقي وفعلي في الشارع السياسي. "الفيسبوك" و"تويتر" وبقية المواقع الاجتماعية لعبت أدوار الحزب بشكل كامل، بدءا من الاستقطاب المليوني للأعضاء، ومرورا بعمليات التوعية والترشيد عن طريق المجموعات والصفحات والتعليقات والدعوات، أما فكرة الحشد فتتم عن طريق صفحة "فيسبوكية" يتعدى عدد أعضائها عدد أعضاء كل الجماعات والأحزاب السياسية، أو "تغريدة" على موقع "تويتر" تذهب لآلاف الناشطين في آن واحد.

وقد صارت عمليات التنسيق والتخطيط وتحديد مواعيد التظاهرات والاعتصامات، تتم بالأساس من خلال هذا العالم، ثم تلاشت أو تضاءلت فكرة البيانات والمنشورات الورقية بشكل كبير لصالح وسائل نقل تحشِيد الآلاف في أقل من دقائق، عملية الترابط الجمعي والانتماء لمنظومة سياسية تم التعويض عنها في العالم الافتراضي بفكرة الأصدقاء والمجموعات التي تخلق مساحات تواصل حتى خارج منطقة الاختلاف الأيديولوجي والسياسي والثقافي.

في السابق كان شريط الكاسيت "أيقونة" الثورة الإيرانية، وإلى اليوم يدين مؤسسو الثورة لهذه "الأيقونة الإعلامية" بالفضل لكونها كانت من أهم وسائل التعبئة الشعبية، وعمليات التثوير الممنهجة التي استخدمها الخميني ضد نظام الشاه حتى تم إسقاط الأخير عام 1979. اليوم الإصدار الحديث للكاسيت ممثلا في "تويتر" و"الفيسبوك" و"البامب يوسر" و"اليوتيوب".. كان بمنــــزلة "الملاك الحارس" و"الراعي الرسمي" للثورة المصرية.

يوميات الثورة

يهدف هذا الكتاب إلى تعرف أهم ملامح المشهد الثوري المصري، في سبعة فصول تتحدث عن تأثر التجربة المصرية بالتجربة التونسية، وأهم العوامل والأحداث التي فجرت الثورة المصرية، ويأتي على رأسها صفحة "خالد سعيد" التي كان لها دور بارز في الإعلان عن يوم 25 يناير يوم احتجاج شامل ضد ممارسات النظام وجهازه الأمني.

كما يرصد الكتاب دور الإعلام الجديد في دعم الثورة المصرية بجانب الإعلام التقليدي، ويتم هنا -بجوار صفحة "خالد سعيد"- استحضار مجموعة "شبكة رصد"، التي كان لها دور بارز في تغطية

أحداث الثورة، بدءا من رصد الأحداث ونقلها، ومد مساحة التفاعل معها باستخدام المواقع الاجتماعية على مواقع الإنترنت، وتفعيل دور وسائل الإعلام الجديد والتكنولوجيا الحديثة في التنسيق وتعبئة الجماهير للنــــزول إلى الشارع.

كما يتناول الكتاب أهم تفاصيل أحداث يومي 25 و28، وهما يومان فاصلان في الثورة المصرية، فقد كان الأول يوم تدشين الثورة وكسر الحاجز بين الجماهير والخروج إلى الشارع، بينما كان الثاني اليوم الحقيقي للثورة المصرية، والإعلان عن أن الشارع قد حسم قراره برفض وجود النظام. والأحداث التي يتم تناولها هنا في هذا الفصل يتم فيها رصد جزئي توثيقي للتحضير لفاعليات الثورة من قِبل بعض المجموعات الحركية الشبابية المنظمة.

الكتاب أيضا يتناول دور بعض اللجان النوعية الداعمة للثورة التي كانت موجودة على خط المواجهة بالميدان، مثل المستشفى الميداني، ويتطرق لنشأتها، وعمل الأطباء والمتطوعين بداخلها، واللحظات الحرجة التي مروا بها، وكيفية تعاملهم مع نقص الأدوية والأغذية، ثم الحديث عن المجموعات الفنية الصغيرة التي كان دورها قويا في لفت النظر إلى سلوكيات تعامل المصريين مع الثورة. ملف يرصد مشاهد رصدتها الكاميرا، أو لوحة فنان، أو فيلماً وثائقياً، أو مسرحية ساخرة، أو صوراً كاريكاتيرية للحظات تاريخية مهمة، عبرت عن آمال المصريين ورؤاهم، وطرق تعبيرهم عن أنفسهم.

فصول الكتاب

في الفصل الأول من الكتاب "التأثير التونسي في الثورة المصرية، من سيدي بوزيد إلى التحرير" للباحث والناشط ممدوح الشيخ، قراءة

توثيقية لتأثر التجربة المصرية بالتجربة التونسية، التي خلص فيها الشيخ إلى أن التجربة المصرية كان تأثرها بالتجربة التونسية على مستويين، أولهما: التأثر النفسي بالحدث الثوري في تونس، وهو ما أوصل الحالة المصرية التي كانت تعج بحالة ثورية كانت تمر بها منذ مطلع الألفية الثانية، وصلت إلى حالة احتقان شديدة قبيل الثورة مباشرة، لكنها كانت حالة ثورية لم تكتمل بنيتها بعد، وتونس ساعدت على انفجارها، و"العدوى" التي تصاحب الهبات والانتفاضات الشعبية لمجتمعات بشرية متقاربة جغرافيا وثقافيا.. عدوى من "الثورة التونسية" التي كانت صدمة للمصريين حيث استقبلوها بشعور هو مزيج من الفرحة والأمل ثم الصدمة، الأمل بتكرار الثورة في التربة المصرية المزروعة منذ سنوات بثورة لم تكتمل بعد، والصدمة في أن معاناتهم لسنوات كان حصادها هناك.. عند الشقيقة الصغيرة "تونس" وفي أقل من شهر، تونس التي لا توجد في شارعها السياسي معارضة بحجم المجموعات والأحزاب السياسية المصرية الكثيرة المتنوعة، الكل حينها تساءل بتشكك وحذر.. أين الخلل إذن؟!

التأثر الثاني كما يؤكد الشيخ هو التأثر على مستوى الأساليب والشعارات، فشعارات حملت مضامين "خبز..حرية..عدالة اجتماعية"، وشعار "الشعب يريد إسقاط النظام"، بدأت تظهر في بلد منسجم أهليا وثقافيا، فظهرت فيها شعارات موحدة، لتظهر هذه الشعارات مرة ثانية في مصر، لكن هذه المرة متحيزة ضد الطائفية والجبهوية لتجمع الشعب بتنوعه تحت يافطة واحدة ذات سقف عالٍ وواضح: نهاية نظام بما تعنيه من نهاية رجاله ومكوناته وأسسه، شعارات واضحة تستدعي: البناء على بياض، بياض ناصع لا تشوبه شائبة، بإطار واضح المعالم والأفق..

تشكله كلمة "الحرية"، كان الشعار مصاحبا لهذا المسار الثوري ومعبرا على كل مراحله ومحطاته. ومن ثم كان شعار "الشعب يريد.." هو العلاج الناجع عندما تم تصديره لمناطق عربية أخرى تتميز بالتنوع في المناطقية والقبائلية والطائفية.

أما الفصل الثاني "كلنا خالد سعيد: شهيد يرحل وشعب يُبعث" فيتناول فيه الباحث والناشط السياسي عمرو مجدي، في دراسة توثيقية هامة دور صفحة خالد سعيد وحجم تأثيرها في الثورة المصرية، والصفحة كما يتحدث مجدي نجحت في حشد الشباب غير المسيس، وإنضاج جزء من وعيهم، ضد قضية التعذيب وانتهاكات الشرطة، وأصبحت من كبرى الصفحات الحقوقية على الإنترنت، التي تعمل بشكل منظم وتقود حشدا كبيرا من الشباب.

والصفحة استلهمت روح "خالد سعيد" لتصنع منه "بوعزيزي" آخر، لتصبح آهاته التي خرجت منه وهو في أيدي زبانية النظام السابق بمنـــزلة "قرع الطبول" لآلاف الشباب غير المسيس الذين صنعوا بأنفسهم تغييرا حقيقيا، بعيدا عن أحزاب ومجموعات سياسية فقدت صدقيتها ومصداقيتها، لرضاها بأن تصبح في إطار النظام القديم، ومن مكوناته التي تكسبه الشرعية، موجودة نعم.. لكنها عاجزة عن الفعل والحركة!.

كان جزء كبير من نجاح الصفحة أنها كانت أول مجموعة سياسية افتراضية عابرة للأيديولوجيا، ركزت على تفعيل القضايا الوطنية والحقوقية دون الانجرار لأي خلافات سياسية فئوية أو حزبية براجمية، ومن ثم استطاعت أن تجذب قطاعا كبيرا من الشباب والنشطاء المستقلين غير المنتمين إلى حركات أو أحزاب سياسية لتشكل بهم أكبر حزب "افتراضي" على الإنترنت.

في الفصل الثالث: "25، و28 يناير..الطريق إلى التحرير" يرصد الناشط السياسي محمد بدوي، وبدقة أهم يومين بالثورة، وهما اليومان اللذان مهدا الطريق إلى التحرير -الميدان والحرية- حيث يتحدث بدوي بداية عن أحداث هامة سبقت أحداث 25 يناير ومهدت لها، بداية من حادثة انفجار "كنيسة القديسين" واشتعال الشارع السياسي المصري المطالب بإقالة وزير الداخلية السابق حبيب العادلي الذي تعنت النظام في إبقائه رغم انفجار الوضع الداخلي ضد سياساته أكثر من مرة في حوادث عنف متتالية وشبيهة.

ثم جاء حادث مقتل الشاب السلفي "سيد بلال"، الذي أعاد في رمزيته وبشاعته حادث مقتل الشاب "خالد سعيد" ليزداد الشارع احتقانا، وليزداد الاحتقان بإحالة مجموعة من الناشطين السياسيين إلى المحكمة بحجة اشتراكهم في مظاهرات طائفية، ولتنتهي جملة الأحداث السابقة بالخروج يوم 25 يناير -يوم عيد الشرطة المصرية- بالثورة ضد النظام، ممثلا في نظامه الأمني شديد القمعية. ثم يعرج بدوي ليصف بدقة أحداث اليومين، ليعطينا فرصة لرؤية زاوية أخرى عن جزء منظم من ثورة عُرفت بأنها كانت ثورة "عفوية" لم يُرتب لها، و لم يقُدْها شخص أو جماعة سياسية.

أما الفصل الرابع "نحو عقد اجتماعي جديد، مسارات التفاوض في مصر الثورة" للباحث والناشط السياسي عبد الرحمن عياش، ففيه يرصد عياش شكل المسار التفاوضي الذي بدأ منذ أعلن الرئيس المخلوع مبارك في خطابه الثاني (الأول من فبراير) عن تكليفه نائبه عمر سليمان بإدارة حوار مع المعارضة المصرية بأطيافها وتوجهاتها كافة، عقب أسبوع من التظاهرات التي جابت أنحاء الدولة المصرية.

والتفاوض في بدايته كانت فيه إشكاليات عدة، أهمها أنه لم يكن هناك أحد يستطيع أن يقول إنه ممثل حقيقي عن الثورة، ثانيها أن من ذهب فعليا تم اتهامه فيما بعد بمحاولة أخذ استحقاق سياسي بالجلوس على طاولة النظام، والالتفاف حول سقف الثورة الممثل في "رحيل النظام"، وكان الشعار المرفوع حينها "لا تفاوض إلا بعد الرحيل". شعارا توافق عليه الثوار دون اتفاق، وكان أن مسار التفاوض فعليا لم يبدأ إلا بعد "تنحي" مبارك عن السلطة.

يستعرض عياش مسار التفاوض بعد تسلم الجيش للسلطة، ومن ثم انتقال التفاوض لجبهات ثورية أخرى معبرة أكثر عن حركات ومجموعات سياسية أخذت بعض الاستحقاق الثوري، فضلا عن الجماعة الكبرى سياسيا .. جماعة الإخوان المسلمين -التي جلست على الطاولة بشكل معلن مرة واحدة على الأقل- وهو المسار الذي حاولت فيه المجموعات السياسية حمل المجلس العسكري على تنفيذ جملة مطالب تعمل من خلالها على تحقيق منجزات الثورة حتى نهايتها. ويتحدث عياش في مشاركته عن أهم المنجزات التي تحققت من خلال التفاوض، والعوائق التي أوقفت مسار التفاوض بعض الأحيان.

في الفصل الخامس تستعرض الطبيبة والناشطة نغم نبيل عمر أحد أهم مكونات العمل الميداني في الثورة المصرية: "المستشفى الميداني" الذي أنشئ منذ اليوم الأول للثورة.

نغم تحدثت عن ظروف إنشاء المستشفى، وكيف جمّع الأطباء فيه، ولماذا كانت الحاجة ملحة وحتمية لوجود مستشفى بهذا الشكل وسط حملات الإغارة المتتالية والضرب بالرصاص الحي، ثم تتحدث عن الاعتقالات التي كانت تطول الجرحى الذين كانوا يفدون على

المستشفيات العامة بل الخاصة، ثم تستدرك نغم لتتعرض للظروف الداخلية للمستشفى، وكيف كان يسد المستشفى حاجاته من الأدوية والأغذية والبطاطين، ثم تتحدث عن الظروف القاسية التي مرَّ بها الأطباء والطبيبات بالمستشفى، وسط الحصار والقمع الأمني والبرد القارص ونقص المؤن والأدوية.

في الفصل السادس "رصد.. وكالة أنباء الثورة"، يتحدث عمرو سلامة القزاز عن شبكة رصد، التي كانت أهم مؤسسة إعلامية خرجت من رحم الثورة، وفريق "رصد" رغم إمكانياتهم البسيطة كفريق شبابـــي غير محترف استطاعوا الوقوف حول تدشين أهم شبكة إعلامية شعبية كانت داعمة للثورة، وعنها نقلت أغلب الوكالات والصحف العالمية والمحلية ما لم تستطع نقله أو بثه من قلب الحدث.

يتحدث القزاز عن أيام "رصد" مع الثورة، وشكل التنسيق بينها وبين صفحة "خالد سعيد"، ثم عن تقسيمة العمل داخل الفريق الذي يبلغ 15 شخصا أغلبهم من الناشطين السياسيين، وعن الأيام والأحداث الحاسمة التي مرت بـــ "رصد"، مثل تغطيتهم أول أيام الثورة، وانقطاع الشبكة العنكبوتية، وكيف تعاملوا مع هذا الأمر، وترصد أمن الدولة للشبكة، ثم اعتقال بعض أعضاء المجموعة، وكيف تواصلوا مع المحافظات، وما الوسائل الحديثة التي استخدموها، وكيف استطاعوا تعبئة الشارع، وتوجيهه بعض الأحيان عند انقطاع الاتصالات.

أما الفصل السابع الأخير: "الفن في الميدان، بين استلهام الثورة وإزالة آثار العدوان" ففيه يتحدث الناقد الفني ياسر علام عن ارتباط الثورة بالفنون بأشكالها كافة، عن ثورة الإبداع وإبداع الثورة، عن

الواقع السياسي الذي فرضه الثوار على النظام، وعن الواقع الفني الذي فرضته الثورة على عقول الثوار فاشتغلوا في الثورة شغلتين: "النضال" و"الحكي"، حتى صار كل من في الميدان "حكاء".

الحكي بالصورة والريشة والنكتة والإذاعة والمسرحية الدرامية والساخرة والشعر واليافطة اللاذعة؛ بل فن السياسة الراشدة الشابة التي قتلت عقم السياسة التقليدية العجوز، فالثوار ولأنهم كانوا في ثورتهم متمردين، امتزجت فنونهم بأعلى سمات الفن.. "التمرد"، فخرجت فنونهم -حتى وإن كانت فطرية- كأحسن ما يكون وعبرت عن ميدان ثورة تدخله فتؤمن أنك في ميدان للفنون لا في ميدان حصار وقتال، كر وفر.

خاتمة: الثورة الدائمة

إن الثورة ليست عملية إحلال واستبدال، يُقدم "زيد" ويؤخر سعيد، تُقْصِى مستبدا وتأتي بطاغية، الثورة لا تخرج شعبا من تبعية لتدخله في هيمنة، الثورة الحقيقية لا تنجح في عملية الهدم، وتفشل في عملية البناء، الثورة الحقيقية لا يصنعها المكاميع ليأخذ ثمارها الأوغاد والانتهازيون.

الثورة إن لم تستطع تفكيك كل بنى النظام القديم، وتعمل لإعادة بناء نظام جديد بمكونات جديدة وعقد اجتماعي جديد تشكله هي فليست ثورة حقيقية، وربما -على الأرجح- إن لم تفعل ذلك.. كانت "ثورة مجهضة" تأخذ الوطن خطوات وخطوات.. إلى الوراء، والتاريخ حاضر.

الفصل الأول

التأثير التونسي في الثورة المصرية
من سيدي بوزيد إلى التحرير

ممدوح الشيخ(*)

كنت في العاصمة اللبنانية بيروت إبان الفصل الأخير من الثورة التونسية، ورغم أنها كانت ليلة مثيرة لبنانيا بسبب بث اللقاء الشهير بين سعد الحريري والشاهد اللبناني المثير للجدل زهير الصديق، فما انتهى الفيلم حتى كانت أسئلة مثقفين لبنانيين وعراقيين كانوا متجمعين في لوبـــي فندق "جاليريا" تعكس اهتماما شديدا بمناقشتي في احتمال أن تنتقل عدوى تونس إلى مصر.

كان المشهد مغريا بالتأمل، فالنظام التونسي كان أحد أكثر الأنظمة العربية إحكاما -أو هكذا كان يبدو- وكانت وثائق ويكيليكس في قلب المشهد، ومعها مواقع التواصل الاجتماعي التي أدت دورا كبيرا في توفير فضاء حر بعد أن صادرت الدولة التونسية من مواطنيها كل شيء حتى القدرة على الحلم. لكن من حُرموا الحلم لم يستطعْ أحد أن يسلبهم القدرة على الانتحار احتجاجا.. بالنار!

(*) سياسي وكاتب مصري، المنسق الإعلامي للجنة "نشطاء مستقلون".

وقد كان للمشهد ثمرتان: الأولى قناعة جديدة بأن مسار الفعل السياسي أصبح له قانون جديد، ولأن هذا القانون وُلد من رحم الواقع ولم يفترضه أحد مسبقا ويسعى لتحويله إلى واقع، فإنه ظل قادرا على أن يدهشنا.

لكن مصر أيضا كان فيها شيء جديد رسمت ملامحه الحركات السياسية الجديدة التي حركت الملايين بينما قياداتها لا تحظى بأي درجة من الشهرة. والحركات السياسية الجديدة هربت من قيود "الحقيقي" إلى فضاء "الافتراضي" حيث الثورة أيضا يمكن إشعالها بكبسة زر.

حدث هذا بينما السياسيون التقليديون -تقريبا مثل النظام- يعيشون بالإيقاع القديم ويتشاجرون على موقع في برلمان لا قيمة له في الحقيقة، وعندما قرر النظام متأثرا بصعود الجمهوريين في انتخابات التجديد النصفي للكونغرس الأمريكي في نوفمبر 2010، أن يستبعد كل المعارضة -المستأنسة وغير المستأنسة- من البرلمان الجديد بالتزوير المذهل، كان بذلك يصنع بيديه جبهة الغاضبين عليه.

في البدء كانت النكتة

كانت مصر منذ العام 2005 تشهد حراكا سياسيا جديدا، نسبيا لا نوعيا، وكان النشطاء يرجحون ألا يأتي التغيير في الأجل المنظور، لكنهم ما كانوا ليتصوروا قط أن يأتي التغيير في تونس قبل مصر، فكان رد الفعل الأول على رحيل الرئيس التونسي زين العابدين بن علي من البلاد مزيجا من الفرحة والصدمة والأمل، وكانت النكتة من ردود الأفعال المبكرة، فأطلقت نكتة تستوحي إعلانا شهيرا يستخدم مصطلح "السيطرة" في عدة عبارات ساخرة،

منها أن السيطرة أن تقنع أصدقاءك أن السفر إلى منتجع شرم الشيخ الساحلي بالدراجات أسرع ويقتنعوا.

وكانت النكتة تعكس إحساسا بأن التغيير كان يفترض أن يحدث في مصر لوجود معارضة سياسية في الداخل، تقول النكتة إن السيطرة أن يكون في مصر: الإخوان المسلمون والدكتور محمد البرادعي و6 أبريل وبقية الأحزاب ويحدث التغيير في تونس.

وبعد مرور يوم واحد على الإعلان عن رحيل الرئيس التونسي عن البلاد كانت صفحات الفيسبوك المصرية تمتلئ بالتعليقات الساخرة على الحدث التونسي، لم تخل من مدلول عميق، وغير قليل منها كان يعكس إحساسا بالمرارة من الوضع في مصر، فمثلا من هذه التعليقات:

"يعني إيه كوك زيرو: يعني البرادعي يطالب بالتغيير في مصر، والشعب يستجيب في تونس!".

"الفرق بين الشعب المصري والتونسي، الشعب التونسي تقول له ثور فيثور، والشعب المصري تقول له: ثور يقول احلبوه"!

"على مسؤوليتي: أنباء عن نية البرادعي الهجرة إلى تونس".

"تونس اختارت التغيير ومصر اختارت شيبسي بالجمبري".

"الشعب التونسي أراد الحياة فاستجاب القدر ... الشعب المصري أراد "الحياة" لقاها على تردد 11255 أفقي".

"تبقى في بقك، وتقسم لتونس".

"إذا الشعب يوما أراد الحياة لا بد أن يستجيب القدر ...
أما إذا أراد النعاس فطبيعي إذن أن تدهسه البقر".[1]

وقبل التهكم المرير كانت هناك إشارات خجول لما يحدث في تونس واحتمال تكراره في مصر[2]، وهو ما تحول -بعد رحيل بن علي من همسات في مقالات متفرقة إلى طوفان من المقالات والتحليلات والتقارير أثرت بقوة في قراءتنا كناشطين سياسيين للحدث التونسي كتجربة ينبغي التوقف عندها، خاصة أن الممكن الذي بدا بعيدا كانت تطرحه تحليلات غربية رصينة كاحتمال وارد، ولعب الإعلام هنا دورا شديد الأهمية في طرح كل الاحتمالات ليتحول الموقف من الانفعال بالحدث التونسي إلى التفكير فيه. "كريستيان ساينس مونيتور" الأمريكية، مثلا، قالت قبل تنحي بن علي بقليل إن مظاهرات تونس جرس إنذار للأنظمة الاستبدادية في الشرق الأوسط، وعلى رأسها النظام المصري، وأكدت أنها تحمل مؤشرات تثير القلق في القاهرة. ونقلت الصحيفة الأمريكية عن الباحث بمؤسسة كارنيغي، الدكتور أشى لاسين أن المصريين يعانون في صمت، لكن هناك انفجارا شعبيا سيحدث في وقت ما.[3]

---

1 محمد عبد الرحمن، أطرف 25 تعليقا عن ثورة تونس على الفيسبوك: تونس اختارت التغيير ومصر اختارت شيبسي بالجمبري - موقع جريدة البديل الإلكترونية اليسارية المصرية - 2011/1/15.

2 راجع مثلا: نشوى الحوفي، يا سيدي كلنا في الهم "سيدى بوزيد" - مقال- جريدة المصري اليوم - 2010/12/2.
http://www.almasryalyoum.com/node/281059.

3 فاطمة زيدان، صحيفة أمريكية: مظاهرات تونس "جرس إنذار" للنظام المصري.. والغضب الشعبي سينفجر قريبا - جريدة المصري اليوم - 2011/1/14.

وفي الأيام التي تلت رحيل الرئيس التونسي كان الإعلام يمتلئ بإشارات متضاربة خلقت حالة مؤقتة من التشوش لدى النشطاء السياسيين، وكانت تتنازعنا آنذاك أعراض حالات تونسية متباينة وأحيانا متناقضة، بحيث كانت تونس لعدة أيام رمزا للأمل واليأس في آن واحد، وقد كان هناك توجه شائع إلى حد ما في الخطاب التحليلي يركز على الاختلاف واستحالة تكرار التجربة، وكان من الأفكار الشائعة المحبطة آنذاك المقارنة بين تظاهر شبان أقباط غاضبين إثر جريمة الاعتداء الإرهابـــي على كنيسة القديسين في الإسكندرية، ومظاهرات الشباب في تونس التي كانت وطنية لا طائفية، وكانت قد دخلت مرحلتها الأخيرة بعد أسبوعين من الاحتجاجات.

فـــ "شتّان بين مظاهرات الغضب في البلدين، فقد فجَّر شباب تونسيون انتفاضة اجتماعية حديثة تدخل في سجل ثورات الشعوب من أجل تحسين مستوى حياها وإصلاح النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، بينما أنتج غضب بعض الشباب في مصر موجة اضطرابات تعبر عن المدى الذي بلغه الغليان الديني والطائفي، فلم ينتفض الشبان الذين تظاهروا في مصر ضد البطالة، التي أخرجت المظاهرات في تونس، بالرغم من أن نسبتها متقاربة في البلدين. ولذلك يبدو الفرق كبيرا بين الحالتين من حيث اتجاه المظاهرات ودوافعها وأهدافها، ولكن

---

http://www.almasry-alyoum.com/article2.aspx?ArticleID=284619&IssueID=2015

و: إسلام النجار، كريستيان ساينس مونيتور: أحداث تونس ستؤدي إلى إصلاحات أوسع في العالم العربي ولكن ليس ثورات – من جريدة الشروق – 2011/1/18.

http://www.shorouknews.com/ContentData.aspx?id=378414

ليس من زاوية وجود ما بررها في الواقع".[1]

وهكذا عبَّر هذا التحليل -ومثله كثير- عن انتقال سريع كان حادثا بالفعل بيننا كنشطاء سياسيين، من المرارة التي تترجمها النكتة إلى الإحباط الذي كان يبدو جليا في نقاشات غير قليل من الفاعلين قبل إطلاق الدعوة لمظاهرة الخامس والعشرين من يناير. وكان مما يتردد في وصف الواقع المصري أن السمة الأساسية له هي "تفتت المصالح" ليس بين فئاته المختلفة والمتناقضة فقط، بل في داخل كل منها أيضا.

على الجانب الآخر كان هناك من يبحث عن مشابهة ولو من باب استنهاض الهمم لكسر حاجز الخوف الذي كان بالفعل العقبة الأكثر صعوبة أمام انطلاق عجلة التغيير في مصر، كان الملمح الباعث على الأمل أن تونس شهدت -وهي دولة صغيرة- نجاح ثورة سلمية في مواجهة نظام بوليسي شديد الإحكام، و"**ما عانت منه تونس، وكان سببا في ثورتها، ليس غريبا عن أحوال معظم الأقطار العربية، وربما هبت رياح التغيير من أصغر قطر في الوطن العربـــي، لتكون بشارة لنا نحن الجماهير العربية، ودرسا وعبرة لحكامه**"، و"**ربما انتقلت العدوى من تونس، واستشرت حمى الثورة بباقي أعضاء الجسد العربـــي لتحل على أنظمته المستبدة رياح التغيير**"[2]. وهكذا كان المنطق السائد: التمني والأمل بانتشار "العدوى"!

---

1 وحيد عبد المجيد، غضب الشباب في مصر وتونس: ما الفرق؟ – مقال – جريدة المصري اليوم – 2011/1/7.
http://www.almasryalyoum.com/node/289018

2 أميمة الشريف، هبت رياح التغيير من تونس – مقال-جريدة البديل اليسارية الإلكترونية- 2011/1/15.

وقد كان من التأثيرات الإيجابية المهمة لنجاح الثورة التونسية في الثورة المصرية ما شهده "السقف السياسي" المصري من ارتفاع ملحوظ في لحظة فارقة، فقد أسهمت الإطاحة بالرئيس التونسي، في بث الجرأة لدى حركات المعارضة العربية والمواطنين العاديين، كي يتحدوا حكوماتهم، فالثورة التونسية مفاجأة على جميع الأصعدة، وهي أظهرت أن الشعوب تستطيع إسقاط الأنظمة القمعية. وهي أكدت أيضا أن الزخم يمكن أن يتبلور بسرعة، حتى في دول تشتهر بإجراءاتها الأمنية المشددة، التي أثبتت حتى الآن فعاليتها في قمع الاحتجاجات[1].

ومع ارتفاع السقف أصبح الإعلام -على نحو يعكس بدقة ما كان الواقع السياسي يموج به- ساحة سجال حول "الحالة التونسية" تتكرر أو لا تتكرر، وبطبيعة الحال كان رموز نظام مبارك يؤكدون استحالة تكرار الحدث التونسي ويشددون على الاختلاف. وكان من أشهر التصريحات الرسمية في هذا السياق قول أحمد أبو الغيط وزير الخارجية: "**هذا كلام فارغ**"، وقول المهندس رشيد محمد رشيد وزير التجارة والصناعة في نظام مبارك "**إن هذا لا يمكن أن يحدث في مصر، لأن مصر لديها منظومة تتضمن 64 مليون بطاقة تموينية تغطي الغالبية العظمى من الشعب المصري، وتجعله معزولا عن الأسعار العالمية، كما أن المواد البترولية مدعومة، ولم يحدث تغيير على أسعارها منذ عام 2008**".[2]

---

1 تقرير: أزمة تونس توقظ الجرأة لدى الشعب العربي - جريدة الشروق المصرية - 2011/1/16.
http://www.shorouknews.com/ContentData.aspx?id=376446

2 ربيع شاهين، وكالات أنباء الشرق الأوسط، أبو الغيط: توقع انتقال أحداث تونس لمصر"كلام فارغ" - جريدة الأهرام - 2011/1/16.
http://gate.ahram.org.eg/News/32631.aspx

وخلال أيام قليلة كان قسم لا يستهان به من الخطاب التحليلي يمد المتفائلين بإمكان استلهام التجربة التونسية بذخيرة حقيقية تتجاوز قيمتها أن تكون مجرد حجج ذات وجاهة في السجال السياسي، بل بدت قراءة أكثر عمقا في حدث بدأ رد الفعل عليه بالسخرية والشعور بالإحباط.

فوقائع البؤس الشديد التي كانت لا تتوقف عن التتالي في كثير من أنحاء مصر وبين مختلف مستوياتها الاجتماعية كانت نذرا يستحيل تقبل تجاهلها، فهي **"ليست جديدة، بل هي متواترة بشكل مفزع"**، وحسب الدكتورة منار الشوربجي فإن المزعج أنها **"تزامنت مع تصريحات "خبراء" في دوائر الحكم استبعدوا فيها أن يتكرر في مصر الانفجار الذي حدث في تونس، بدعوى أن هناك فارقا بين الحال هنا وهناك"، و"الاحتجاجات التونسية بدأت بالبطالة ثم تحولت إلى مطالب بالتغيير الشامل. وهى بمثابة الدليل العملي على فساد مقولات يروج لها البعض في مصر تزعم أن الناس لا يهمها سوى لقمة العيش وأن لا طلب على الديمقراطية"**.[1]

وخلال أيام كانت الصحافة المصرية تحفل بمقالات رأي وتحليلات وتقارير كثير منها يدور حول الدرس التونسي وعبرته وآفاق تكراره مصريا.

بين الحيرة والانتحار احتجاجا

كان أول ما انتقل إلى التجربة المصرية من الثورة التونسية محاولة البعض تكرار الحادثة التي كانت شرارة ثورة تونس عبر الاحتجاج

---

1 د.منار الشوربجي، الرسالة التونسية -- مقال - جريدة المصري اليوم - 1120/1/19. http://www.almasryalyoum.com/node/299355

حرقا، فتحت وطأة الشعور بالإهانة والعجز المالي قام المواطن المصري عبده عبد المنعم بمحاولة الانتحار بإشعال النار في جسده أمام مبنى البرلمان، مقلدا حادثة مشابهة كان بطلها البائع التونسي المتجول محمد البوعزيزي، وفي اليوم التالي شهد شارع مجلس الشعب بالقاهرة، محاولتي انتحار جديدتين، حيث تخلص شاب عاطل في الإسكندرية من حياته بعد قطع شريان يده وإشعال النار في نفسه، وأضرب موظف عن الطعام وقيد نفسه بالسلاسل، احتجاجا على ما اعتبره تعنتا من الإدارة ضده.[1]

وبدلا من البحث المضني عن مبررات لنفي إمكان تكرار الثورة التونسية أصبح الاحتجاج بالانتحار حرقا منعطفا في الخطاب السياسي، فشهد تصاعدا كبيرا في لهجة انتقاد النظام، وصولا إلى المطالبة الساخرة بأن تخصص الحكومة أماكن لمن يريد الانتحار حرقا![2]

ولعبت هذه الحوادث المتفرقة دورا كبير في دفع نشطاء السياسة الجدد إلى التفكير الجدي في عمل احتجاجي كبير يستلهم روح الثورة التونسية، وبعد أن كتب محلل سياسي معروف مثل الدكتور عمرو الشوبكي في 16 يناير 2011 تحت عنوان "**مصر ليست تونس**"، إذا به بعد أيام وفي 2011/1/19 تحت عنوان: "**ثورة تونس الملهمة**" ولأسباب من بينها الدور الإصلاحي العملي الذي قام

1 جرائد مصرية مختلفة بعددي: 18 و19 يناير 2011.

2 د. محمود خليل، المنتحر والمنحور – مقال – جريدة المصري اليوم – 1120/1/23.

http://www.almasry-alyoum.com/article2.aspx?ArticleID=285653&IssueID=2024

لسنوات كان منهج الدكتور أسامة الغزالي حرب رئيس حزب الجبهة الديمقراطية -وقد شارك شباب حزبه في الثورة المصرية من البداية- منهجا مختلفا في النظر يعكس إلى حد كبير ما كان قد بدأ بالفعل يتبلور بين شباب الفيسبوك الذين سرعان ما أصبحوا صناع الثورة المصرية.

فبعد استعراض دروس الثورة يكتب: "وأخيرا، ولحسن الحظ، فإن للثورات والهبّات الجماهيرية "عدوى" تنتقل من بلد إلى آخر! وتلك حقيقة تاريخية ثابتة، ولحسن الحظ، فإن ما يحفل به عالم اليوم من قدرات وآليات حديثة ومتعددة للتواصل البشرى بين المجتمعات بعضها وبعض، خاصة بين الشباب، يجعل تلك العدوى وذلك التأثير أكبر بكثير مما كان في الماضي".[1] والعبارة تلخص أهم تأثيرات الثورة التونسية في الحالة السياسية المصرية التي لم تكن قد وصلت بعد إلى حالة الثورة في وضوحها ويقينيتها، فضلا عن أنه استشرف ببصيرة ثاقبة أهم أدوات التحرك الجديدة التي أثبتت الثورة التونسية فاعليتها.

وانتقل قسم لا يستهان به من الخطاب التحليلي من النفي والبحث عن الاختلافات إلى التساؤل عن إمكان التكرار، وقد جاء السؤال هذه المرة أيضا على لسان أكاديمي كان لسنوات واحدا من أهم معارضي نظام مبارك وشارك في الثورة المصرية من المشهد الأول، فتحت عنوان: "ثورة تونس: هل هي قابلة للتكرار؟" (جريدة المصري اليوم 2011/1/23) كتب الدكتور محمد أبو الغار: "**في الأسبوع الماضي أثناء حديثي مع الممرضات والتومرجية والمرضى**

---

1 د.أسامة الغزالي حرب، تونس.. دروس الثورة – مقال –– جريدة المصري اليوم – 2011/1/16.

http://www.almasry-alyoum.com/article2.aspx?ArticleID=284792&IssueID=2017

من كافة الطبقات والطلبة وزملائي وعائلتي؛ كان واضحا أن الشعب المصري بجميع طبقاته وفئاته تابع ما حدث في تونس باهتمام شديد، وكان واضحا أن المصريين يتطلعون إلى حياة ديمقراطية، وأنهم يشجعون الانتفاضة العظيمة للشعب التونسي".

العدوى الرائعة!

وكما هو متوقع كان عالم المدونين من النشطاء يسبق التيار العام الذي ظل مترددا لأيام قبل أن يرجح أن التجربة يمكن أن تتكرر وإن اختلفت التفاصيل، وقد بدأ الاحتفال بنجاح الثورة التونسية في فضاء الإنترنت، فاستخدمه النشطاء من دعاة الديمقراطية والمدونين للاحتفال بسقوط الرئيس التونسي، وحذروا القادة الآخرين من أنهم يواجهون نفس المصير وحملت صفحة على فيسبوك عنوان "**مشروع لتحضير طائرة لكل رئيس**"، ودعت عدة صفحات مبارك للبدء في حزم حقائبه استعدادا للرحيل. ولجأ النشطاء الحقوقيون إلى الإنترنت بكثافة أكثر للالتفاف على القيود الصارمة المفروضة على وسائل الإعلام بعد أن رأوا بأعينهم في الثورة التونسية كيف فشلت وسائل الحجب التي اتخذتها السلطات التونسية في منع صور المتظاهرين القتلى والمصابين من الوصول إلى الإنترنت وإشعال احتجاجات أوسع نطاقا.

ودعت مجموعة مصرية على الفيسبوك إلى تنظيم احتجاجات في الشوارع في 25 يناير وأطلقت عليه "**يوم الثورة ضد التعذيب والفقر والفساد والبطالة**". وقالت المجموعة "**يوم 25 يناير هننزل (سوف نسير) كلنا بأعلام مصر مش (وليس) بأعلام أحزاب ولا حركات سياسية .. يوم 25 يناير هنصحى (سوف نصحو) كلنا**

ونفوق (نفيق) وننـــزل ونمشي في مسيرات في كل مصر ونهتف مطالبين بحقوقنا ومطالبين أن الشعب كله ينضم لينا .. يوم 25 يناير مش (ليس) هو النهاية .. بس (لكن) لو اتحدنا هيكون (سيكون) بداية النهاية".[1]

وبعض المحللين الذين كانوا يتبنون بحماس مقولة: "مصر ليست تونس" شكل تحول خطابهم نوعا من التأييد المعنوي لصوابية رؤية الداعين للتحرك في عمل احتجاجي كبير، فبعد المقال المشار إليه سابقا للدكتور وحيد عبد المجيد كتب بعد أيام مؤكدا أن الخوف من "العدوى التونسية" طال حكومات عربية أخرى لا تختلف ظروفها الموضوعية كثيرا عن تونس. وانتقد عبد المجيد ما أبداه بعض أركان الحكومة وأباطرة المال من ثقة مفرطة عبر تأكيد أن ما حدث في تونس لا يمكن أن يؤثر في مصر، وإذا كان صحيحا أنه لا استنساخ ولا عدوى بالمعنى الدقيق في التطور السياسي والاجتماعي، فهذا لا يمنع التأثير والتأثر. وليس هناك مناعة إزاء مثل هذا التحول في أي مجتمع يبلغ فيه التناقض الاجتماعي مستوى مماثلا لما وصل إليه في تونس، حتى إذا اقترن هذا التناقض بتشظي المجتمع وتشرذمه وتفتت المصالح فيه كما هي الحال في مصر.

وصبيحة يوم المظاهرة الافتتاحية للثورة المصرية كان أحد أهم رموز هذه الثورة الصديق العزيز الدكتور عمار علي حسن يكتب تحت عنوان: "**مصر وثورة تونس**" (جريدة المصري اليوم) كاشفا أن قوى التغيير الجديدة، التي نشأت كحركات اجتماعية وسياسية في

---

1 دينا زايد، مدونون عرب: ثورة تونس أظهرت أن ساعة رحيل الزعماء العرب اقتربت -تقرير- موقع وكالة رويترز للأنباء - 2011/1/17.
http://ara.reuters.com/article/topNews/idARACAE70G0YT20110117

السنوات الماضية، تدرس التجربة التونسية بغبطة شديدة، وتفتح نقاشا على إعادة النظر في التكتيك الذي اتبعته، وقام على ضرورة "التغيير من أعلى". فتجربة تونس بدأت اجتماعية محضة، وتصاعدت لتشتبك مع السياق السياسي الطبيعي، وانتهت بخلع الحاكم، بينما بدأ المصريون تجربتهم بدعوة الحاكم إلى الرحيل أو التغيير الجذري دون استحضار الشعب في المشهد، وتبنوا "أجندة" لا تزال ملتبسة في أذهان العوام حول الحريات العامة، وتأسيس دستور جديد، وإنهاء حالة الطوارئ، فانعزلوا عن الناس، ودخلوا في مرحلة "تآكل ذاتي" أورثتهم ضعفا وتهالكا في مواجهة السلطة. وما جرى في تونس قد يجعل النخبة المصرية المطالبة بالتغيير تعيد وضع "الخبز" إلى جانب "الحرية" بعد تجاهل وتغافل ونسيان، أو تطلق شعار "الطريق إلى الرئيس يبدأ بالرغيف".

وانطلاقا من هذا الإدراك الجديد كان شعار المظاهرة الافتتاحية يوم 25 يناير: عيش.. حرية.. كرامة إنسانية. في 24 يناير 2011 كان على موقع يوتيوب كليب مصور من مشاهد الثورة التونسية تحت عنوان: "**تحررت تونس وستتحرر مصر أيضا وسيعتقل مبارك وزبانيته**"[1]، فكانت تونس إيقونة المستحيل/ الممكن. لكن الهدية الأكثر أهمية من تونس لمصر كان الشعار الرباعي العبقري: "**الشعب يريد إسقاط النظام**". ففي اللحظة التي وجد فيها النشطاء الداعون للمظاهرة عددا يمثل ما عدوه "الكتلة الحرجة" اللازمة لتغيير النظام رافعين الشعار الذي ولد في ثورة تونس، ونجح في جمع كل الغاضبين على اختلاف انتماءاتهم دون عناء كبير.

---

1 http://www.youtube.com/watch?v=sH6owZN8-jM

وكما انتقلت الروح الثورية وكما تبنت الثورة المصرية الشعار التونسي التاريخي كانت صفحات الفيسبوك ساحة للتدريب على مواجهة مخاطر العمل الثوري عبر نصائح نقلت من ثوار تونس إلى ثوار مصر، فيما يخص فوائد التظاهر ليلا لإجهاد أجهزة الأمن وتقليل فرص القبض على المتظاهرين وفرص معرفة هوياتهم وللنجاة من عمليات التصوير، وكذلك لمنع عمليات الخطف وزوار الفجر. هذا فضلا عن نصائح تكتيكية هامة في كيفية شل السيارات المصفحة واتقاء أثر الصواعق الكهربائية ومفعول القنابل المسيلة للدموع، وهي نصائح انتشرت بشكل واسع على صفحات النشطاء على الفيسبوك.

وكما احتلت مدينة "سيدي بوزيد" التونسية مكانة مميزة في الثورة التونسية كونها النقطة التي بدأت منها الثورة، كانت "السويس" المصرية التي بادرت إلى تقديم الشهداء تحمل لقب "سيدي بوزيد مصر"، في تأكيد على المكانة التي احتلتها المدينة التونسية في نفوس المصريين، وقد أطلقها أحد شباب السويس مبكرا جدا في مداخلة على شاشة قناة الجزيرة الفضائية.

وفي اعتراف مهم ومبكر بتأثير الثورة التونسية على الثورة المصرية تحدث أحمد ماهر منسق حركة 6 أبريل في حوار مع المصري اليوم في 5 فبراير 2011 قائلا إن "**هناك صحوة وانتفاضة منذ أحداث تونس وتغيير نظام القمع والاستبداد بعد رحيل الرئيس التونسي بن علي وساعدت حركة المحتجين في تونس على تفاعل عدد كبير من الشباب المصري**".

خاتمة:

لقد كانت الصدمة التونسية صدمة للمصريين سرعان ما تحولت إلى منحة، فقد شعر كثير من النشطاء المهمومين بالتغيير بأن شيئا مس كرامتهم وإحساسهم بمكانة مصر التي اعتادوا أن تحتل موقع "الشقيقة الكبرى" وأن يبدأ منها مسار التغير في العالم العربـــي...، لكن الصدمة التي دفعتهم للسخرية ثم الشعور بالإحباط كانت سحابة حبلى بالكثير مما ساهم بقوة في إنجاح الثورة المصرية، وبقي تأثير الثورة التونسية في الأساليب والشعارات كما في الإطار العام الذي قدم لحركات الاحتجاج المصرية ما ظلت تبحث عنه لسنوات.

"كلنا خالد سعيد".. شهيد يرحل وشعب يبعث

بحث في نشأة الصفحة وتطوراتها ومشاركتها في الثورة المصرية

عمرو مجدي(*)

"يجب أن يكون الكتاب
فأسا للبحر المتجمد فينا"

كافكا

مدخل

عن الذي أشعل ثورة من قبره

نستطيع أن نجزم أنه لم يكن بوسع الشاب خالد سعيد رحمه الله أن يتخيل ولو لوهلة أن تنشأ صفحة باسمه على فيسبوك تصبح من كبرى الصفحات الحقوقية على الموقع، بل يتحول إلى رمز من رموز الثورة المصرية، إذ تصبح تلك الصفحة هي المجموعة الأولى التي تتبنى الدعوة إلى مظاهرات 25 يناير التي تطورت إلى ثورة هزت أرجاء المعمورة. وكأن الأقدار تشاكسنا بحروف اسمه: خالدٌ وسعيد!

(*) معيد بقسم الطب النفسي جامعة القاهرة، وباحث وصحفي مستقل.

فما هي صفحة كلنا خالد سعيد؟ كيف نشأت وكيف تطورت؟ وكيف قادت أنشطتها؟ من مديروها ومن محرروها؟ وكيف أصبحت المجموعة المتصدرة لدعوة التظاهر في 25 يناير؟ وما دورها خلال 18 يوما من الثورة في الشارع؟

نحن إذن بصدد محاولة رصد وتوثيق، أكثر من كونها محاولة للتحليل، فالمطلوب من الباحث كما كُلف هو توثيق تطورات الصفحة، لذلك أظن أن السؤال الأول يكون: من خالد سعيد؟! أو بالأحرى ما قضية خالد سعيد؟

في ليلة السادس من يونيو عام 2010 في عروس المتوسط الإسكندرية، كان مجموعة من الشباب يجلسون في مقهى إنترنت في شارع عادي، مثل ألوف شوارع أبناء الطبقة المتوسطة. هنا تراهم يلعبون أو يدردشون أو.. يستخدمون فيسبوك، صفحة جديدة قد تسفر عن حياة جديدة، لا أحد يدري.

لا نعرف بالضبط ما الذي كان الشاب العشريني "خالد سعيد" يفعله في المقهى مع أصدقائه في تلك اللحظة، لكن ما صرنا نعرفه جيدا أن اثنين من مخبري قسم سيدي جابر بالإسكندرية لسببٍ أو لآخر "كبسوا" على المقهى.

كل ما سبق حتى الآن عادي جدا، يتكرر يوميا عشرات المرات على أرض مصر، لكن ما سيحدث تاليا هو عنصر الجِدة في المشهد: المخبر يطلب من خالد سعيد إبراز بطاقته الشخصية، خالد سعيد يصرخ فيه رافضا ذلك.

بوسعنا أن نتخيل حوارا بين شاب متعلم ينتمي لبقايا الطبقة المتوسطة بأحلامها المتعثرة، وطموحاتها في حياة كريمة لا يكدرها القلق، ومخبر "يعرف عمله جيدا". الشاب يرفض إبراز بطاقته لأنه

لم يرتكب جرما، والمخبر يعد ذلك إهانة لفخامته، يحتدم المشهد.. يتطور إلى عراك، ينهال المخبران ضربا على خالد سعيد وسحلا له، أمام أعين القلة المتواجدة في المكان. يستخدمان الركل والصفع وخبط الرأس في الحائط ودرابزين السلالم.. وحين يدركان أن "انتقامهما تجاوز الحد" وأنه قد فارق الحياة، يسحبانه إلى سيارة الشرطة، يضعان في فمه وحيازته لفائف من المخدرات ثم يعودان لقذفه في الشارع. تجيء سيارة الإسعاف لاستكمال المشهد[1].

الصُبح طلع، ونور الشمس يجلو حقائق الليل، سارعت الصحف المستقلة والمنظمات الحقوقية إلى تبني قضية خالد سعيد كشهيد آخر من شهداء التعذيب والطوارئ على أرض الكرنك، لكن عواصف الظلام مظلمة، مئات الصفحات التي تسود صفحته. حملة شعواء قادها أجهزة الإعلام الرسمية على الرجل: الرجل مات بأسفيكسيا الخنق[2]، كان معه لفافة بانغو حاول ابتلاعها ليهرب من مساءلة الشرطة فانحشرت في حلقه ومات! الرجل سيئ السمعة، الرجل هرب من الخدمة العسكرية! الرجل مطلوب في أحكام محكمة!

---

1 حسام الوكيل وحسن أبو شقرة: أقوال الشهود أمام النيابة تؤكد وفاة خالد سعيد من شدة التعذيب – صحيفة الدستور في 2010/6/17 http://dostor.org/crime/10/june/16/19383 (زيارة 2011/4/10).

2 توصل تقرير لجنة الطبي الشرعي التي شكلها النائب العام إلى أن خالد سعيد مات بأسفيكسيا الخنق نتيجة محاولة ابتلاعه لفافة بانغو لإخفائها، تقرير صحيفة الأهرام بتاريخ 2010/6/24 http://www.ahram.org.eg/207/2010/06/24/25/26297.aspx (زيارة 2011/4/9) ولقي هذا التقرير رفضا واسعا ولازالت القضية في المحكمة حتى لحظة كتابة السطور.

لكن أسفيكسيا الخنق لم تقدم تفسيرا لشفتيه المقطوعتين، وأنفه المجدوع، وأسنانه المكسرة، ورأسه المشجوج! صورة بشعة تناقلتها وسائل الإعلام لخالد سعيد من المشرحة. حاول أتباع النظام تصويرها على أنها نتاج عملية "تشريح ما بعد الموت". كان ذلك آخر ما فعلوه بخالد، فماذا فعل خالد بهم؟ الجواب ترويه صفحات فيسبوك.

نشأة الصفحة.. صرخة الموتى

بعد استشهاد خالد سعيد على يد الشرطة المصرية، نشأت عدة صفحات على فيسبوك، تطالب بمحاكمة الجناة ووقف ممارسات التعذيب وغير ذلك مما اعتاد النشطاء على المطالبة به بعد كل حادثة تعذيب تخرج تفاصيلها للنور.

من بين تلك الصفحات كانت صفحة "كلنا خالد سعيد"[1]، نشأت بعد الحادثة بثلاثة أيام تقريبا، وكانت هي أبرز الصفحات وأكثرها تنظيما كما اتضح من محتواها في الأيام الأولى، وعلى غرار أختها صفحة "6 إبريل" التي سبقتها بعامين في 2008 وقادت احتجاجات واسعة، لم تكتف صفحة خالد سعيد بعرض القضية وإنما قادت أعضاءها بشكل منظم.

الاختلاف الآخر بينها وبين بقية الصفحات هو أن منشئها فضل الاحتفاظ بشخصيته الحقيقية سرا، ليصبح هذا الموضوع، أعني شخصية مدير (أدمن) الصفحة مثار جدل، ويتصاعد اللغز بشدة أثناء الثورة المصرية، حتى تكشف حلقات اللغز لاحقا في بداية فبراير 2011.

---

1 عنوان صفحة كلنا خالد سعيد هو:
http://www.facebook.com/ElShaheeed (آخر زيارة 2011/4/12).

المؤسس الشبح!

كانت هناك عدة شخصيات وراء صفحة "كلنا خالد سعيد"، ثمة صدفة تتلخص في أن الباحث كان ضمن دائرة أصدقاء أحد مؤسسي الصفحة الذين أخبرهم، لذلك تمكن من الاطلاع جيدا من قبل الثورة بعدة شهور على شبكة العلاقات خلف تلك الصفحة. ومن ثم الحكم على الجدل الذي دار حولها.

مدير الصفحة أو "الأدمن" هما شخصان أساسيان:

1. وائل غنيم[1]: مؤسس ومدير الصفحة، شاب مصري يعمل في شركة غوغل مديرا للتسويق في الشرق الأوسط متنقلا بين مصر والإمارات.
2. عبد الرحمن منصور: المدير الثاني الأساسي، وانضم للمجموعة بعد تأسيسها بأيام، وهو شاب تخرج حديثا في كلية آداب، قسم إعلام، جامعة المنصورة، وناشط إلكتروني، وصحفي حر.
3. سنتعرض لاحقا لبعض الشخصيات التي أدارت الصفحة لوقت قصير، وآخرين ساهموا بالمساعدة، طبقا للتسلسل الزمني.

1 أثناء إعداد البحث، حاول الباحث الاتصال مرارا وتكرارا بوائل غنيم لكنه رفض الحديث على اعتبار أنه مرتبط مع دار نشر بعقد لنشر كتاب ومن بنود العقد عدم الحديث لوسائل إعلامية حتى خروج الكتاب للنور.

الفكرة وبداية النشاط

يقول عبد الرحمن منصور[1] إن معرفته بوائل غنيم تعود إلى العام 2009 حيث تعرفا من خلال صديق مشترك، أما فكرة إنشاء الصفحة فكانت في جوهرها محاولة لرصد انتهاكات الشرطة المصرية، وحل معادلة القمع، بحيث يمكن فتح الباب للنشاط بعد ذلك في كل النواحي، ويرى منصور أن وفاة خالد سعيد بالطريقة التي حدثت أثرت في قطاع كبير من الناس وأوصلت لملايين المصريين فكرة مفادها أن شابا من الطبقة المتوسطة لا يتناول السياسة ليس بمنأى عن التعذيب.

بدأت الصفحة بنشر تعليقات ومتابعة أخبار القضية ونشر بعض النصوص القانونية المتعلقة بالتعذيب في حقوق الإنسان.

النزول إلى الأرض.. الوقفات الصامتة

ويضيف منصور: وصلت إلينا رسالة من شخص لا نعرفه اسمه محمد عيسى يدعو لوقفة صامتة بالملابس السوداء، طورنا الفكرة وجعلناها أمام الكورنيش بملابس سوداء، فكانت فكرة رائعة وجديدة نسبيا، وطرحناها على جمهور الصفحة فلاقت تأييدا كبيرا.

وحسب منصور فإن الفكرة كل ما فيها رمزي تماما، الزيّ الأسود تعبيرٌ عن لون الأحوال في البلد، الشباب يقفون وظهورهم للشارع لأننا غاضبون مما يجري فيه، وجوهنا للبحر أو النيل استقبالا للأمل، والوقفة صامتة لأن الكلام لم يعد له معنى.

1 المصدر: مقابلة خاصة مع الباحث في القاهرة بتاريخ 2011/3/28، وكل الأقوال المنسوبة لعبد الرحمن منصور هنا ستكون من هذه المقابلة.

وكانت هذه الفكرة مصدر إلهام كبير للصفحة، أول وقفة كانت في الإسكندرية يوم الجمعة 2010/6/18 ونجحت نجاحا باهرا[1].. اشترك مئات الشباب، ولأول مرة الأمهات والأسر تشترك بشكل غير متوقع، وكان معظم الشباب غير مسيس، ولم يمارس الوقفات أو المظاهرات من قبل، لكنهم تأثروا بصورة خالد سعيد.

كانت تعليمات عبد الرحمن منصور ووائل غنيم لمؤيدي الصفحة ألا يشتبكوا مع رجال الأمن وألا يشتبكوا بالأيدي وأن ينصرفوا إذا ما طلب منهم أحد ذلك، وتعرض الشباب في القاهرة لمطاردة الأمن، أما في الإسكندرية فكان الوضع أقل توترا.

تزامن إطلاق الصفحة مع حالة من الحراك السياسي في المجتمع، تصدرها د. محمد البرادعي بعد عودته لمصر ودعوته للتغيير، ما مثل رافدا إضافيا لنشاطات الصفحة.

يتضح ذلك في ثاني وقفة دعت إليها الصفحة في يوم الجمعة التالي 2010/6/25، إذ انضم لها البرادعي وشباب من الإخوان، انطلاقا من مسجد سيدي جابر بالإسكندرية، وقدر عدد المشاركين فيها بنحو 5000 متظاهر[2]. بينما استمر الشباب بملابسهم السوداء في وقفتهم الصامتة على الكورنيش. وكانت تلك إشارة لقدرة الصفحة

---

1 للإنصاف فإن الاحتجاج الأول تمثل في مظاهرة شبه عفوية سبقت هذه الوقفة في 2010/6/11 حيث تجمهر عدد من النشطاء أمام قسم سيدي جابر واعتقل الأمن بعضهم.

2 مصطفى سليمان: البرادعي يقود مسيرة تضامنا مع أسرة قتيل الإسكندرية – موقع العربية نت في 2010/6/25

http://www.alarabiya.net/articles/2010/06/25/112267.html (زيارة 2011/4/9).

على الحشد والوصول للشباب، وكانت مشاركة البرادعي مساهمة كبيرة في تحدي الأوضاع القائمة وإلهام الشباب بالأمل.

تسببت الوقفات التي نظمتها الصفحة في إحياء قضية خالد سعيد، حتى إن الصفحة كانت تنشر بشكل شبه يومي عشرات الصور من مصريين مقيمين بالخارج[1] وغير مصريين من الشباب المتعاطف مع القضية وهو يمسك لوحة تعبر عن موقفه.

كانت وقائع التعذيب وانتهاكات الشرطة المختلفة تتوارد واحدة تلو أخرى على الصفحة التي كرست كل جهدها في ذلك الخط، حتى حدثت واقعة جديدة راح ضحيتها الشهيد أحمد شعبان[2] (19 عاما فقط) في قسم الشرطة نفسه الذي مات فيه خالد سعيد: قسم سيدي جابر بالإسكندرية.

كان ذلك القسم بالتحديد معروفا من قبل بسمعته السيئة، لكن وفاة شخص آخر بدا وكأنه تحدٍ للصفحة[3].

ويشير عبد الرحمن منصور إلى أن بعض الأعضاء بدأ يبدي رغبته في تصعيد مسار الصفحة إلى الدعوة لمهاجمة أقسام الشرطة، وأمور أخرى من هذا القبيل التي تدل على تصاعد الغضب.

---

1 وقفة احتجاجية أمام السفارة المصرية في لندن للتنديد بحادث قتيل الإسكندرية – المصري اليوم في 2010/6/21 http://www.almasry-alyoum.com/article2.aspx?ArticleID=259753 (زيارة 2010/4/10).

2 أحمد شعبان ضحية تعذيب جديدة بقسم سيدي جابر – شهادات الأهالي بتاريخ 2010/11/13
http://www.youtube.com/watch?v=gvQlWqC80K8 (زيارة 2011/4/10)

3 أيمن شعبان: أنباء عن سقوط ضحية تعذيب جديدة بقسم سيدي جابر – موقع مصراوي 2010/11/13
http://www.masrawy.com/News/Egypt/Politics/2010/november/13/gaber.aspx (زيارة 2011/4/10).

في منتصف شهر نوفمبر تقريبا كان عدد الأعضاء في المجموعة قد تخطى 300 ألف عضو، وعدد الزيارات للصفحة تجاوز 2.5 مليون زيارة يوميا[1].

خطوات بكر إلى عالم السياسة

وفي نهاية هذا الشهر نوفمبر 2011، كانت مصر على موعد مع الانتخابات البرلمانية، ليتصاعد النقاش السياسي داخل مجتمع الصفحة الذي يخطو غالبية أعضائه خطواته البكر إلى عالم السياسة.

وحسب عبد الرحمن منصور، ثمة خلاف في الرؤى بينه وبين وائل غنيم، حيث انحاز الأخير إلى بقاء الصفحة بمعزل عن السياسة بمعناها الواسع، في صالح التركيز على حقوق الإنسان، خاصة ما يتعلق بوقف التعذيب وفضح ممارساته[2]، لكن بعد النقاش بين نشطاء الصفحة اقتنع وائل بفكرة التعرض لقضايا سياسية أخرى، واستثمار النجاح الذي حققته الصفحة والتنامي السريع في عدد أعضائها، وتوظيف حماسهم لصالح قضايا سياسية أخرى.

استقر الرأي إذن على ضرورة تغطية الانتهاكات في الانتخابات البرلمانية وفضح التزوير الذي يحدث، كما دعت الصفحة الشباب قبل

---

1 آدام باسيلي: أشهر صفحة حقوقية سرية في مصر تجذب أكثر من 300 ألف على فيسبوك – جريدة جدار الإلكترونية – في 2011/11/27 http://bit.ly/igI9cg (زيارة 2011/4/11).

2 في حوار مع وائل غنيم قبل الإفصاح عن شخصيته أكد أن الهدف الأساسي من الصفحة وقف التعذيب بمصر – حاوره خالد البرماوي على موقع مصراوي في 2011/11/26 (زيارة 2011/4/11).
http://www.masrawy.com/News/Writers/KhaledBermawy/2010/November/26/khaled_saeied.aspx

الانتخابات بيومين إلى الذهاب إلى اللجان لإبطال أصواتهم بكتابة اسم خالد سعيد على ورقة التصويت[1].

يسأل أحد الأعضاء على الصفحة يوم 28 نوفمبر "إزاي أبطل صوتي؟"، إنها خطوات بكر إلى عالم السياسة. كما نشرت الصفحة حوالي 20 فيديو رفعها مدير الصفحة، توضح انتهاكات وعمليات تزوير واسعة في الانتخابات.

بعد ظهور نتيجة الانتخابات وعودة سيناريو الفوز بأربع تسعات لصالح مرشحي الحزب الوطني الحاكم، أصيب الناس بالمزيد من الإحباط، إذ شكّل ذلك رِدة هائلة في مسار الديمقراطية المصرية الهامشية أصلا.

ويقول منصور إن مشاركة الصفحة في قضايا سياسية أخرى، مثل الانتخابات البرلمانية بدأت تنضج وتبين ازدياد الوعي لدى الأعضاء الشباب صغار السن أن الأزمة ليست أزمة التعذيب فقط، ولكن أزمة نظام كامل استبدادي، وغياب للديمقراطية.

ويضيف: في شهر نوفمبر كان قد بدأ التفكير في تطوير رفض مؤسسي للتعذيب والقمع، بمعنى أننا فكرنا في إنشاء مشروع اسمه Police Watch نصنع فيه خرائط إلكترونية بكمائن الشرطة في مصر واعتداءاتها وأي معاملة غير لائقة في نقاط الشرطة بحيث نفضح أي تعامل سلبـــي، من ضرب أو رشوة أو إهمال، ونشيد بأي تعامل إيجابـــي.

---

1 انتخب خالد سعيد رمز الميزان – كلنا خالد سعيد في 2011/11/28
http://www.facebook.com/event.php?eid=121084947955232
(زيارة 2011/4/10).

مزيد من الخطوات

بعد انفضاض معركة الانتخابات البرلمانية بكل ما خلفته من احتقان لدى المصريين نتيجة عدم نجاح أي فصيل معارض، ومقاطعة معظم الأحزاب والجماعات للجولة الثانية من الانتخابات، جاء العام الجديد محملا بمزيد من الألغام السياسية.

في 1 يناير 2011 استيقظ المصريون على حادث إرهابـــي راح ضحيته 21 قتيلا وعشرات الجرحى في تفجير كنيسة القديسين بالإسكندرية، كان الحادث فريدا من نوعه في استهداف الأقباط ومنذرا خطيرا بشقاق جديد في المجتمع المصري[1].

وكان الخروج الثاني لصفحة كلنا خالد سعيد إلى ساحة السياسة بمعناها الأشمل، دعت الصفحة إلى مشاركة بوقفة صامتة يوم الجمعة 2011/1/9 للتأكيد على وحدة المصريين ومصيرهم المشترك، وكانت استجابة عالية بـــ 18 ألف عضو سجلوا في صفحة الوقفة[2].

كانت الاستجابة عريضة من المصريين جميعا، ومن أعضاء الصفحة في التضامن مع أشقاء الوطن، لكن وكما يحدث في أي واقعة طائفية تخرج بعض الأصوات التي تحاول تحميل الطرف الآخر المسؤولية، وكانت هناك بعض اتهامات لمديري الصفحة بالانحياز ضد الإسلاميين.

---

1 الإرهاب يشعل فتيل الفتنة في الإسكندرية.. ويسقط 21 شهيدا مصريا ليلة رأس السنة – المصري اليوم في 2011/1/2 http://www.almasry-alyoum.com/article2.aspx?ArticleID=283202 (زيارة 2011/4/11).

2 الوقفة الصامتة بالملابس السوداء حدادا على ضحايا الإرهاب – كلنا خالد سعيد http://www.facebook.com/event.php?eid=178344598854523 (زيارة 2011/4/11).

بيد أن القدر لم يمهل مديري الصفحة ولا هؤلاء المعترضين، وقعت الضحية الثالثة للتعذيب في الإسكندرية، السيد بلال[1]؛ شاب سلفي مثقف اعتقله الأمن على خلفية أحداث القديسين وخرج ميتا.

يقول مدير الصفحة في تعليق له: "دم سيد بلال عندنا زي دم مريم فكري اللي اتقتلت على يد المجرمين في تفجيرات الإسكندرية.. الاثنين مصريين والاثنين مينفعش يموتوا.. هدفنا واحد"[2].

تبنت الصفحة قضيته مع نشطاء آخرين، وقاموا بزيارات لأسرة الشهيد سيد بلال، إثر تعرض الأخيرة لضغوط كبيرة من الجهات الأمنية للتنازل عن التحقيق في مقتله. وكانت الوقفة الصامتة في 2011/1/9 للتضامن مع دماء المسلمين والمسيحيين معا، فالقضية واحدة في نظر مديري الصفحة.

التحضير لِمَا صار ثورة!

في أواخر شهر ديسمبر كان عبد الرحمن منصور ووائل غنيم ومجموعة من الأصدقاء يناقشون الخطوات التالية للصفحة، اتفقوا على ضرورة التحرك يوم 25 يناير في عيد الشرطة، برفع مطالب محددة، منها وقف ممارسات التعذيب وإقالة وزير الداخلية حبيب العادلي. رغم أن البعض كان يفضل عدم الاحتكاك بالشرطة في عيدها وتأجيل التظاهر ليوم الجمعة 28 يناير. لكن الرأي استقر –حسب

---

1 يسري البدري وآخرون – النيابة تستعجل تقرير الطب الشرعي في وفاة الشاب السلفي.. وأحد أقاربه: "الأمن" يهدد باعتقال أسرته لإجبارها على سحب البلاغ – المصري اليوم في 2011/1/9 http://www.almasry-alyoum.com/article2.aspx?ArticleID=284013 (زيارة 2011/4/11).

2 http://www.facebook.com/ElShaheeed/posts/153845088001453 في 2011/1/6 (زيارة 2011/4/11).

منصور- على التظاهر يوم 25 يناير، وبالفعل في يوم 28 ديسمبر كانت دعوة التظاهر في عيد الشرطة قد اختمرت في الأذهان.

يتضح نموذج لهذا النقاش في تعليق مدير الصفحة يوم 2011/12/30 يقول:

"يوم 25 يناير هو يوم عيد الشرطة إجازة رسمية .. أعتقد أنهم خلال سنة عملوا حاجات كتير تستحق الاحتفال بهم على طريقتنا الخاصة .. إيه رأيكم؟"[1]

وكان للقدر اقتراح آخر، مساند هذه المرة.. انتقلت ثورة الشعب التونسي، من سيدي بوزيد إلى العاصمة، وحين انقشعت الموجة الأولى من رائحة الياسمين، بقي لدى المصريين الإحساس بالحيرة والإحباط، كيف تقوم في تونس الثورة ولا تقوم في مصر؟

يؤكد منصور أن النقاشات بينهم كانت تدور حول الفوارق بين مصر وتونس التي تجعل من الصعب تكرار الثورة التونسية في مصر، لكنهم قرروا على الأقل أنهم لا بد أن يتحركوا بشكل أكبر ويرفعوا سقف المطالب، استثمارا لهرمونات الأمل التي دفقتها رائحة الياسمين في عروق العرب والمصريين.

تتصاعد اللهجة: في 14 يناير يضع مدير الصفحة فيديو منتشرا على الإنترنت يصفع فيه ضابط شرطة رجلا كبيرا في السن من المعتصمين أمام مجلس الشعب، ويعقب مدير الصفحة[2]:

---

1 http://www.facebook.com/ElShaheeed/posts/189629641052183 في 2010/12/30 (زيارة 2011/4/11).

2 http://www.facebook.com/ElShaheeed/posts/169329983111382 في 2011/1/14 (زيارة 2011/4/11).

"عيد الشرطة يوم 25 يناير وهنحتفل بيهم على طريقتنا الخاصة، والفيديو ده أوضح مثال لتعامل الشرطة مع المواطنين اللي مالهمش ضهر، اللي مش تبع الباشوات الكبار، اللي مش بلطجية أو معاهم أسلحة، ضابط الشرطة المحترم بيضرب واحد قد والده". وفي تعليق آخر ذات اليوم 14 يناير يتساءل:

"النهارده يوم 15 .. يوم 25 يناير هو عيد الشرطة يوم إجازة رسمية .. لو نـــزلنا 100 ألف واحد في القاهرة محدش هيقف قصادنا .. يا ترى نقدر؟"[1]

شهدت تلك الفترة 8 محاولات تقريبا لانتحار مصريين بإشعال النار في أنفسهم أمام مجلس الشعب وفي أماكن أخرى.. كانت محاولة لاستلهام تجربة الشهيد محمد بوعزيزي في تونس.

بدأ العد التنازلي وتتصاعد اللهجة أكثر وأكثر، يقول مدير الصفحة في تعليق له يوم 23 يناير:

"أنا نازل يوم 25 يناير.. لأن البلد دي بلدي، وأقسم بالله إني مستعد أموت في سبيل أنها تتغير ويزول الكرب عن ولادها"[2].

تحولت دعوة التظاهر في عيد الشرطة إلى الدعوة إلى ما أسموه "يوم الغضب"، ورُفِعت مطالب إضافية، من بينها حل مجلسي الشعب والشورى، وإعادة الانتخابات المزورة، وتبنت الدعوة مجموعات

---

1 http://www.facebook.com/ElShaheeed/posts/163391383707409 في 2011/1/14 (زيارة 201/4/11).

2 http://www.facebook.com/ElShaheeed/posts/162445243802902 في 2011/1/23 (زيارة 2011/4/11).

أخرى منها حركة 6 أبريل وحملة دعم البرادعي وغيرها من المجموعات السياسية المستقلة.

تحدث حبيب العادلي عن تلك المظاهرات وحذرت الصحف الرسمية منها، فكان ذلك رافدا آخر ينشر الدعوة لملايين الناس التي لا تتابع الإنترنت.

نجحت دعوة 25 يناير بشكل غير متوقع إطلاقا، احتل المتظاهرون ميدان التحرير في الساعة الواحدة ظهرا تقريبا بعد معارك عنيفة مع الأمن، فضلت الداخلية ألا تقوم باستخدام كل قوتها في محاولة لإظهار أنها مع ضبط النفس.

كانت جحافل الأمن المركزي تغلق كل المنافذ المؤدية للتحرير، وتنتشر في كل ربوع الجمهورية.

تساءل المتظاهرون في الميدان: ماذا نفعل الآن؟؟ نعم، كان الباحث معهم وشاهدا على هذا السؤال، لم يخطط أحد لاعتصام و لم يكن لأحد خطة واضحة للخطوة التالية، لكن في عفوية تامة كان الجميع يميل للاعتصام وتصعيد سقف المطالب[1].

تركت الداخلية المتظاهرين حتى الساعة 12 منتصف الليل، بدأ الضرب وإخلاء الميدان.. لكن بذرة الأمل التي زرعها نجاح اليوم في النفوس كانت قد شقت طريقها إلى السماء.

بعد ساعات قليلة، لم يعد المطلب إسقاط العادلي ووقف التعذيب، صار المطلوب النظام ورأسه، وكان تعليق مدير الصفحة

---

1 إنـذار .. الآلاف يتظاهرون ضد الفقر والبطالة والغلاء والفساد.. ويطالبون برحيل الحكومة - المصري اليوم في 2011/1/26 http://www.almasry-alyoum.com/article2.aspx?ArticleID=286068 (زيارة 2011/4/11).

يوم 26 يناير هو: يسقط يسقط حسني مبارك[1]. تعليقات أخرى تختصر الموقف: نفسي أشوف مصر زي تونس[2].

دعت صفحة كلنا خالد سعيد إلى جمعة الغضب، واشترك في صفحة الدعوة 89 ألف عضو بعدما كان المتوسط من 5 إلى 10 آلاف عضو[3].

اشترك في الدعوة لجمعة الغضب كل الأطياف السياسية، وبعد مشاركة حذرة من الأحزاب والجماعات التقليدية يوم الثلاثاء كانت المشاركة يوم 28 يناير من جحافل الجماهير.. هكذا.. وبكل بساطة.. قامت الثورة!

الصفحة أثناء وبعد الثورة

لم يعد للإنترنت أهمية كبيرة منذ يوم الخميس 2011/1/27 بعد قطع السلطات المصرية للإنترنت عن البلاد مساء الخميس، ثم ألحقته بإيقاف كامل لشبكات المحمول الثلاث في ساعة مبكرة من يوم الجمعة[4].

---

1 http://www.facebook.com/ElShaheeed/posts/177876032254013 في 2011/1/26 (زيارة 2011/4/11).

2 http://www.facebook.com/ElShaheeed/posts/121614514577865 في 2011/1/26 (زيارة 2011/4/11).

3 جمعة الغضب للثورة على الفساد والظلم والبطالة والتعذيب – كلنا خالد سعيد – في 2011/1/26 http://www.facebook.com/home.php#!/event.php?eid=141531305908212 (زيارة 2011/4/11).

4 مواصلة قطع الإنترنت عن مصر – الجزيرة نت في 2011/1/29 http://www.aljazeera.net/NR/exeres/8F8983B9-F723-422A-BD67-BC41C99265E6.htm (زيارة 2011/1/4).

كان لهذا الإجراء مؤشرات سبقته، وكان هناك صديق يقوم بتحرير الصفحة من الأردن أثناء انقطاع الإنترنت عن مصر، كما كانت الناشطة نادين عبد الوهاب مديرة للصفحة من الولايات المتحدة منذ وقت طويل لاتخاذ ما يلزم في حالة حجب الصفحة أو فيسبوك في مصر في أي ظرف.

اختفاء مديري الصفحة.. إسرائيل، المخابرات، الإخوان وهلم جرا!

في تلك الأثناء اعتقلت السلطات الأمنية وائل غنيم منتصف يوم الخميس، بينما كان عبد الرحمن منصور المدير الثاني للصفحة قد التحق بخدمة التجنيد الإلزامية في 17 يناير، مما يعني أن الصفحة أصبحت شاغرة من مديريها الأساسيين.

بيد أن هذا الفراغ كان أيضا في الحسبان، كان الناشط أحمد صالح -وهو طالب دكتوراه في القانون وصديق لعبد الرحمن ووائل ومدير حملة البرادعي حاليا- هو الوجه الآخر لإدارة الصفحة أثناء غياب منصور واعتقال وائل الذي استمر لمدة 12 يوما.

في مساء الجمعة بدأت وكالات الأنباء في إيراد خبر اعتقال مدير تسويق غوغل في الشرق الأوسط، وبدأ النشطاء الذين يعرفون حقيقة وائل غنيم في تسريب الخبر الخاص بأنه مؤسس صفحة كلنا خالد سعيد[1]، لكنها بقيت مجرد تكهنات ينقلها

---

1 أحمد الشمسي: وائل غنيم من غوغل إلى خالد سعيد انتهاء باختفائه – موقع مصراوي في 2011/2/2.
http://www.masrawy.com/news/Egypt/Politics/2011/February/2/wael_ghonem.aspx (زيارة 2011/4/11).

الإعلام حتى خروج وائل يوم 7 فبراير وتأكيده تلك المعلومة بنفسه.

في هذا الوقت انتشرت بشكل كثيف على منتديات الإنترنت ما ادعى ناشروه أنه وثائق تثبت أن مدير صفحة خالد سعيد ليس مصريا وأنه يتبع أجندات خارجية[1]، تمادى البعض في اعتباره عميلا لإسرائيل وأن تلك الأخيرة تقف وراء الصفحة منذ البداية.

لقد ساهم في اشتعال ذلك اللغط الخوف من القادم المجهول، بالإضافة إلى تأكيد العديد من النشطاء أن ثمة عناصر من الشباب جندها الحزب الوطني وأجهزة الأمن في إحدى مقار الحزب لترويج هذه الأقاويل على الإنترنت. وشائعات أخرى ضد الثورة، لكن السؤال يبقى لماذا لم يفصح مديرو الصفحة عن أنفسهم من البداية؟

يقول عبد الرحمن منصور إنهم فضلوا نقاء الفكرة من أي توجهات شخصية، واعتبر أن السر في نجاح الصفحة أصلا يعود إلى كون المدير مجهولا، لأنه فور أن تعرف الناس شخصيته ستترك الفكرة وتبدأ في النقاش حول تلك الشخصية، ويقول منصور إنهم استلهموا تلك الفكرة من فيلم "ڤي الانتقام" V for vendetta، وهو يحكي تفاصيل ثورة شعبية في بريطانيا ضد حكومة مستبدة يقودها شخص مجهول يموت في نهاية الفيلم دون أن يعرفه سوى أشخاص قلائل، بيد أن منصور لا ينفي كذلك عامل الخوف على مديري الصفحة، وعلى الصفحة نفسها في حال الكشف عن هوية المؤسس من أن يعتقل أو ينكل به.

---

1 كمثال على ذلك هذه الصفحة: كشف حقيقة مدير صفحة كلنا خالد سعيد – منتدى شباب اليوم – 2011/2/6
http://www.shbab-2day.com/vb/t95887.html (زيارة 2011/4/11).

الإفراج عن وائل غنيم لم ينهِ اللغط حول شخصية مدير الصفحة، فالوجه الآخر "عبد الرحمن منصور" لم يكن قد أعلن عنه بعد، كان منصور في الجيش وكان القلق عليه متزايدا، لأن موقف الجيش في البداية لم يكن واضحا من الثورة المصرية.

وبعد نقاش بين النشطاء أعلن أصدقاء منصور في وقت متزامن: الناشط شادي الغزالي حرب على برنامج العاشرة مساء[1]، وأصدقاؤه في موقع الجزيرة توك أن عبد الرحمن منصور هو صاحب فكرة الدعوة إلى مظاهرات 25 يناير مع وائل غنيم[2]. وبذلك ينتهي اللغط حول شخصية مدير صفحة خالد سعيد[3].

بعد الكشف عن هوية مؤسسي الصفحة قال د. عصام العريان في قناة فضائية إن عبد الرحمن منصور إخوان وإن وائل غنيم كان إخوانيا، وهو ما أثار غضبا شديدا على العريان، لأن الحقيقة هي أن كلا من منصور ووائل مستقلا التوجه تماما، لا ينتميان لأي تيار أو حزب، وانتماؤهما لأي تيارات انتهى بسنوات طويلة قبل إنشاء الصفحة.

---

1 شاهد حلقة العاشرة مساء
2011/2/21 http://www.youtube.com/watch?v=dryvMcYYt6Q

2 عبد الرحمن منصور مفجر الثورة الخفي – موقع الجزيرة توك في 2011/2/22 http://aljazeeratalk.net/node/7398 (زيارة 2011/4/11).

3 أحمد عطية: الشروق تبحث عن حل لغز صاحب صفحة خالد سعيد – صحيفة الشروق في 2011/2/26
http://www.shorouknews.com/ContentData.aspx?ID=397794
(زيارة 2011/4/11).

الصفحة أثناء الثورة:

بدأ الإنترنت يعود تدريجيا إلى مصر يوم الأربعاء 2 فبراير[1]، و لم يحقق قطعه أيا من أهدافه، بل ثمة تقديرات أن قطع الاتصالات تسبب في مزيد من حشد النشطاء في الشارع[2].

عاد النشاط إلى الصفحة مرة أخرى وكان يقودها هذه المرة أحمد صالح، كانت الدعوة إلى جمعة الخلاص 4 فبراير[3]، واشترك في صفحة الدعوة 54 ألف عضو. ثم جمعة الشهداء 11 فبراير التي سجل في صفحتها 97 ألف عضو[4].

يرى أحمد صالح[5] أن اللحظة التي بكى فيها وائل غنيم على برنامج العاشرة مساء[6] كانت فارقة في تاريخ الصفحة، كانت الثورة تتعرض لاغتيال معنوي كبير في وسائل الإعلام بعد خطاب مبارك الثاني وكانت بحاجة لدفقة عاطفية قوية.

---

1 عودة تدريجية للإنترنت في مصر – موقع الجزيرة نت في 2011/2/2 (زيارة 2011/4/11).
http://www.aljazeera.net/NR/exeres/91DDEAE4-2F2E-4750-93AB-78AA2E4FB76F.htm

2 فشل هدف وقف الإنترنت في مصر – الجزيرة نت نقلا عن الغارديان في 2011/2/1 (زيارة 2011/4/11)
http://www.aljazeera.net/NR/exeres/B073BB4B-D58D-4E7E-A4EC-AE5F1F3BFF97.htm

3 جمعة الخلاص – كلنا خالد سعيد –
http://www.facebook.com/event.php?eid=131592436908484
(زيارة 4/11/

4 جمعة الشهداء – كلنا خالد سعيد –
http://www.facebook.com/event.php?eid=165530283499491

5 المصدر: مقابلة شخصية مع الباحث في القاهرة بتاريخ 2011/4/9، وأي قول منسوب لأحمد صالح سيكون من ذات المقابلة.

6 حلقة العاشرة مساء 7 فبراير
http://www.youtube.com/watch?v=8Gpzo9016oQ (زيارة 2011/4/11).

في تلك اللحظة سجلت الصفحة ارتفاعا هائلا بلغ نحو 200 ألف عضو جديد خلال ساعات قليلة، مما يشير إلى تسجيل وائل نقطة أخرى ضد النظام، خاصة بعد موقعة الجمل التي أنهت أي جدية لوعودٍ إصلاحية حملها خطاب مبارك العاطفي. في ذلك الوقت برز اسم وائل غنيم بشكل ضخم كأحد زعماء شباب الثورة المصرية، واستُقبل استقبال الأبطال في التحرير، في حين أكد هو على أن الأبطال الحقيقيين هم شباب الميدان.

علاقة رومانسية لم تستمر طويلا إذ سرعان ما تباينت المواقف خاصة مع حداثة المشاركة السياسية لوائل غنيم ومعظم شباب الثورة، وارتكابهم أخطاء، مما أكد ثانية أن جماهير الثورة لا يقودها أحد، لقد شن النشطاء هجوما كبيرا على وائل غنيم بعد حديث عن رضاه ببعض الإصلاحات الجزئية التي عرضها النظام قبل تنحي مبارك.

بيد أن وائل تحلى بشجاعة كبيرة حيث اعترف مرارا وتكرارا بارتكابه بعض الأخطاء واعتذر عنها، كما ظهر على شاشة قناة العربية رافضا لأي تنازل عن مطالب الثورة[1]. ووعد بالانسحاب من الحياة السياسة بعد تحقق مطالب الثورة. وتوقف لعدة أيام عن الظهور في الإعلام.

الصفحة بعد الثورة

بعد تنحي الرئيس مبارك دخلت الثورة المصرية مرحلة جديدة، لكنها لم تنتهِ حتى لحظة كتابة السطور، ولن تنتهي إلا بتحقق كل

---

1 لقاء وائل غنيم على قناة العربية قبل التنحي بساعات
http://www.youtube.com/watch?v=BzE3SxOe4F0 (زيارة 2011/4/11).

مطالبها، بالإضافة للانتقال الديمقراطي للسلطة وتكريس قوانين الحياة المدنية السليمة.

علاقة الثورة بالجيش كذلك تمر بعدة مراحل لا يمكن التنبؤ بجميعها الآن، لكن المؤكد أن "شهر العسل" بينهما انتهى، وقد توترت العلاقة بين الثوار والجيش في لحظات كثيرة.

بعد خروج وائل من المعتقل أصبح الناس يتعاملون مع الصفحة والشخص كوجهين لعملة واحدة، وكان هناك انتقاد كبير لوائل غنيم لعدم تناوله وقائع تعذيب بعض المتظاهرين على يد الشرطة العسكرية.. لكن بالتدريج بدأ وائل يكتب عن انتقاد الأداء السياسي للجيش في الصفحة.

في 5 مارس 2011 تخطى عدد أعضاء الصفحة حاجز المليون[1]، ويبلغ الآن في 11 أبريل نحو مليون و130 ألفا. وهو إنجاز كبير بلغة الأرقام إذا قسمنا عدد الأعضاء على 300 يوم (أنشئت الصفحة في منتصف يونيو 2010) يكون متوسط الأعضاء الجدد في اليوم حوالي 3400 عضو.

تتجه الأمور الآن كما كتب وائل على الصفحة وكما يقول عبد الرحمن منصور إلى استخدام الصفحة للتوعية السياسية في الأساس. لكن لم يتضح حتى الآن كيف ستتم هذه العملية على الأرض[2].

---

1 محمد طارق: أعضاء مجموعة خالد سعيد يكسرون حاجز المليون – الدستور في 2011/3/6
http://www.dostor.org/society-and-people/variety/11/march/6/37573
زيارة 2011/4/12

2 هبة أمين: خالد سعيد يترك فيسبوك ويخرج للشارع – الأهرام في 2011/3/27
http://gate.ahram.org.eg/News/54087.aspx زيارة 2011/4/12

تشترك الصفحة الآن في كل الأحداث السياسية، وتقوم بالتنسيق مع ائتلاف شباب الثورة وغيرها من الجهات الائتلافية للثوار في الدعوة والحشد لمليونيات الجمعة وغيرها. والتحدي الحقيقي يبقى في كيفية استثمار الرصيد الذي خلقته الصفحة لثمانية أشهر قبل الثورة في فتح آفاق جديدة أمام الشباب للعمل المنظم.

الخلاصة:

كان خالد سعيد هو بوعزيزي مصر، في عصر أصبح فيه الموتى يقودون الثورات من قبورهم، نعم.. كنا موتى، في قبور غير مرئية.. دخل خالد سعيد إلى قبره الحقيقي، وخرجنا نحن من قبورنا الوهمية.. قادنا خالد سعيد وبوعزيزي أن نقول آه.. أن نصرخ.. وأن نجعل المتسلطين يقولون: أنا فهمتكم.

كانت صفحة خالد سعيد نموذجا للمشاركة المتنامية للشباب في الحياة السياسية بطرق غير تقليدية، في الوقت الذي فقدت فيه الجماعات التقليدية بريقها وفقدت أحزاب المعارضة الكارتونية مصداقيتها، وقبع الاثنان عاجزين عن التحرك خارج أطرهم المستهلكة، وأيديولوجياتهم الجامدة.

نجحت الصفحة في حشد الشباب غير المسيس، وإنضاج جزء من وعيهم، ضد قضية التعذيب وانتهاكات الشرطة، وأصبحت من كبرى الصفحات الحقوقية على الإنترنت، التي تعمل بشكل منظم وتقود حشدا كبيرا من الشباب.

25 و28 يناير.. الطريق إلى التحرير

محمد بدوي(*)

لم يكن صباح الـ 25 من يناير يوما كغيره من الأيام لأي ناشط مصري أو حتى رجل الشارع العادي، فما سبقته من دعاية وإرهاصات تعيد للأذهان حالة الاستنفار قبل السادس من أبريل 2008 تؤكد أنه ليس كغيره من الأيام. وقبل الاستطراد فيما حدث يوم الخامس والعشرين من يناير لا بد من الوقوف للحظات أمام بعض المواقف التي سبقت اليوم وعرضها مبسطة حتى تتضح الصورة على أكمل وجه.

ليلة رأس السنة.. بداية النهاية

إنها متتالية بدأت بانفجار كنيسة القديسين وتصاعد السخط القبطي ومشاركة للعديد من النشطاء مسيحيين ومسلمين في وقفات احتجاجية تطالب بإقالة حبيب العادلي. وتصاعد السخط المصري العام مع مقتل الشاب سيد بلال أحد الشباب السلفيين معذبا على يد ضباط الشرطة بالإسكندرية ليعيد للأذهان واقعة الشاب خالد سعيد.

(*) عضو المكتب التنفيذي لائتلاف شباب الثورة.

12 يناير.. شهيد آخر يشعل النار

هي مسيرة منددة بمقتل سيد بلال والتعتيم الإعلامي على الحادثة، وعدم الوصول لأي نتيجة في أحداث كنيسة القديسين تنتهي باستخدام القوة والقبض على العديد من النشطاء أمام نقابة المحامين وإطلاقهم في اليوم نفسه.

14 يناير.. سقوط أول الطواغيت

بن علي يهرب من تونس والثورة الشعبية التونسية تنجح في إسقاط نظام من أقوى الأنظمة الديكتاتورية في الوطن العربـــي، وهي صورة أصبحت في عقل كل عربـــي: الثورة باتت ممكنة.

منتصف يناير

اجتماع ممثلين عن مجموعة من الحركات الشبابية ينتهي بتأسيس ائتلاف بين هذه الحركات تحت اسم ائتلاف شباب التغيير يضم كلا من:

شباب من أجل العدالة والحرية[1].

شباب 6 أبريل.

حملة البرادعي ومطالب التغيير "معا سنغير"[2].

---

1 حركة تمثل إحدى المجموعات السياسية الجديدة ذات الطابع العابر للأيديولوجيا والمرجعيات الفكرية، تضم بين جنباتها مجموعات مختلفة من الاشتراكيين والإسلاميين والليبراليين والمستقلين، خرجت إلى الساحة المصرية عقب أحداث مقتل الشاب خالد سعيد في 17 يوليو 2010، وأهم أفكارها المركزية ربط المطالب السياسية والديمقراطية بالمطالب الاقتصادية والاجتماعية (المحرر).

2 مجموعة أساسية من مجموعات دعم الدكتور محمد البرادعي انشقت عن مجموعة الحملة الشعبية لدعم البرادعي (لازم) اعتراضا على انتخاب مصطفى النجار منسقا للحملة بديلا عن عبد الرحمن يوسف (المحرر).

شباب حزب الجبهة.

بعض النشطاء المستقلين.

كان عدد منهم قد شاركوا في وقفة احتجاجية ضد التعذيب أمام وزارة الداخلية يوم عيد الشرطة للعام 2010، ومع نهاية الوضع التونسي أمام وزارة الداخلية والإعلان عن دعوة صفحة "كلنا خالد سعيد" على موقع الفيسبوك لاعتبار يوم عيد الشرطة يوما للتظاهر ضد العنف المفرط والتعذيب من وزارة الداخلية تبنى الائتلاف الدعوة على أن يصعد سقف مطالبها ويعمل على نشرها إلى أقصى درجة.

24 يناير.. التجهيز للمعركة

* شباب الإخوان المسلمين يتصلون بعدد من ائتلاف شباب التغيير ويعلنون مشاركتهم في فعالية الغد بعيدا عن قرار الجماعة بعدم المشاركة وينضمون للائتلاف ويواجهون نقدا عنيفا من الجماعة.
* حركة "حشد"[1] تدعو إلى مسيرة من كوبري الوحدة بإمبابة، وبعض الأحزاب تحت التأسيس تدعو إلى مسيرة من جامع الخازندار بشبرا، فيما دعا ناشطو ائتلاف شباب التغيير إلى مسيرة مسجد مصطفى محمود بالمهندسين.

في المقر المؤقت لحركة شباب من أجل العدالة والحرية (مقر التجديد الاشتراكي)

---

1 حركة تمثل إحدى المجموعات الشبابية الجديدة ذات الطابع العابر للأيديولوجيا، تضم بين جنباتها مجموعات مختلفة من الاشتراكيين والمستقلين، لكن الاشتراكيين الثوريين يمثلون عماد المجموعة السياسية، تم تأسيسها في مايو 2010 (المحرر).

أقيمت ثلاث ورش عمل لنشطاء حركة العدالة والحرية و6 أبريل بالإضافة للعديد من الشباب المنخرطين حديثا بعد تلقي الدعوة من على صفحات الإنترنت، كان موضوع الورش كالآتي:

1. ورشة قانونية حقوقية توضح للنشطاء كيفية التعامل مع الشرطة في حالة ألقي القبض على أي منهم والحقوق التي يكفلها القانون لهم، وكذلك كيفية تعرّف الانتهاكات التي ترتكب في حقوقهم، ومحاولة تعرّف مرتكبها، والأسلوب الذي يضمن حفظ حقوقهم عند العرض على النيابة.
2. ورشة حاسوبية تقنية تتعرض للاستخدام الأمثل للتكنولوجيا في كيفية توثيق الحدث والانتهاكات وكيفية نشرها.
3. ورشة حركية تشرح كيفية التواصل مع رؤوس المجموعات وأسلوب التعامل مع المواقف التي من المحتمل حدوثها في الغد دون الوقوع في أخطاء قد تكون سببا في تصعيد مبكر أو القبض على أحد النشطاء دون توثيق أو علم من أي أحد، وانتهى اللقاء بجملة لأحد قيادات الشباب بالعدالة والحرية قائلا:

"غدا ليست ثورة.. لكنه يوم حاسم في خلخلة النظام، وإن كانت المشاركة قوية فالبلاد سترُفع إلى السماء وتصنع من جديد، المشاركة إما أن توضع بشكل صحيح وإما أن توضع علينا".

* تلا هذه الورش اجتماع لرؤوس المجموعات تم فيه توضيح خط سير للمسيرات باتجاه ميدان التحرير، في الوقت الذي كانت فيه الدعوات المعلنة للانطلاق على الإنترنت هي كوبري الوحدة- إمبابة
* مسجد مصطفى محمود-المهندسين.
* مسجد الخازندار-شبرا.

كانت المسيرة القادمة من شارع ناهيا ببولاق مسيرة غير معلنة وتم الترتيب لها بشكل سري كامل حتى تكون قد اكتسبت قوتها قبل مواجهة الجموع الأمنية المتوقع محاصرتها لمسجد مصطفى محمود الذي توجهت له مجموعتان فقط من الشباب عددها لا يتعدى العشرين تكون في استقبال أي مشاركين وفي انتظار المسيرة القادمة من بولاق.

صباح 25 يناير ..انفجار الثورة

بخلاف المجموعات التي توجهت مباشرة إلى مسجدي مصطفى محمود والخازندار وكوبري الوحدة كانت كل مجموعة تلتقي في أحد الأماكن –حيث اختيار المكان متروك لرأس المجموعة– ثم الاتجاه مع مجموعته الصغيرة إلى كوبري ناهيا ببولاق الدكرور، العجيب أن العديد من رؤساء المجموعات فوجئوا بقوات من الأمن المركزي عند مكان اللقاء بمجموعته الصغيرة، بل كانت تحرك أيضا بحيث يتم تغيير مكان هذه القوات مع تغيير رأس المجموعة مكان اللقاء، حتى يجد قوات الأمن نفسها عند نقطة اللقاء الجديدة، ما يؤكد وجود مراقبة شديدة لهواتف بعض رؤوس المجموعات.

بدأ وصول المجموعات الصغيرة ناهيا عند الثانية عشرة ظهرا، ووصل خبر إلى الشباب أنه قد ألقي القبض على ناشطين أثناء إحضارهم الدروع الوقائية البسيطة من البلاستيك التي كانت معدة سلفا من بعض النشطاء لارتدائها تحت الملابس لتفادي الطلقات المطاطية والخرطوش ومجموعة من اللوحات، كما تم القبض على مجموعة من الناشطات بأحد المقاهي أمام مسجد مصطفى محمود وأفرج عنهن بعدها بساعتين.

كانت قوة من الأمن المركزي متمركزة خلف كوبري ناهيا، لكن الشباب انطلقوا بمجموعاتهم الصغيرة تتجول في المنطقة بعيدا عن هذه القوة وتحاول الالتقاء بعضها ببعض، ومع اكتمال المجموعات بدأت تجتمع أمام أحد محلات الحلوى المتفق عليها سلفا، في تمام الواحدة والنصف كان عدد الشباب لا يتجاوز 300 رفعوا أعلام مصر وبدؤوا يهتفون (تحيا مصر-تحيا مصر) وأخذوا يجوبون الشارع ذهابا وعودة مرتين مرددين شعارات تندد بالنظام القائم ومنادين بسقوط حسني مبارك، وتدعو أهالي المنطقة للانضمام للمسيرة.

كان انضمام الأهالي للمسيرة حاشدا وفاق توقع المنظمين، حتى إن العدد كان قد وصل إلى 5000، هنا أحس الشباب بقدرتهم على الاتجاه إلى خط سيرهم مع علمهم أنهم سوف يمرون بالقوة المتمركزة أسفل كوبري ناهيا، لكن العدد كان دافعا قويا، فضلا عن أن صغر القوة الأمنية لن يجعلها تستطيع مواجهة هذه الآلاف الثائرة، وانطلقت المجموعة وبالفعل لم تكن القوة الأمنية من الكفاية لمواجهة العدد، حيث سبقت جموع المتظاهرين إلى كوبري السيارات ولم يستطع الجنود اللحاق بهم لسد الطريق عليهم.

انطلقت جموع المتظاهرين عبر شارع جامعة الدول العربية وأخذت قوات الأمن تنسحب من أمامهم أمام العدد الذي أصبح يتزايد بشكل كبير، حتى إن لحظة اللقاء بالمجموعة المحاصرة عند مسجد مصطفى محمود التي كانت تتجاوز الألف بقليل كان عدد القادمين بالمسيرة يتجاوز العشرة آلاف، وأمام هذا العدد الضخم تم فك الحصار تماما، وانطلقت المجموعتان معا عبر شارع البطل أحمد عبد العزيز وقوات الأمن تلاحقهم في صفوف منتظمة، وبدا أن الخطة الأمنية قد بدأت تأخذ شكلا آخر مع العدد الضخم غير

المتوقع، حيث هدفوا إلى التواجد خلف المسيرة بأعداد كبيرة دون الدخول في مواجهة معها على خلاف ما كان في البداية.

اتجهت الجموع بعد ذلك عبر شارع التحرير إلى ميدان الدقي، حيث كانت هناك قوة أمنية تعترض الطريق إلى ميدان التحرير أمام كوبري الجلاء، وهنا انضم إلى المسيرة عدد ضخم لمسيرة شعبية كانت قد خرجت من الجيزة ليصل عدد المتظاهرين إلى قرابة الثلاثين ألفا تطلب من قوات الأمن فتح الطريق لها للمرور إلى الميدان مرددة هتافها "سلمية..سلمية"، واستمر الجمود حوالي نصف ساعة.

ولعل المواجهة الأولى كانت حين بدأ الجنود في استخدام العصي، لكن مع الزحف الشعبي الضخم بعد دقائق قليلة اشتبكت فيها الصفوف الأولى مع الجنود بالأيدي لتدفع عن نفسها ضربات العصي، ثم تم كسر الكردون وسبقت الجموع باتجاه الميدان، إلا أن مجموعة من 5000 احتجزت دون المرور إلى الميدان بعد إعادة ضبط الكردون، وبدأت محاولات عديدة للتفاوض مرة والتدافع مرة أخرى محاولة المرور خلف من سبقوهم، وربما نجحت مئات قليلة منهم في العبور وأدوا صلاة العصر على جانبي الكردون، ثم قامت الأغلبية المحاصرة خلف الكردون وأخذت قرارها بعد تأكد وصول المجموعة الأولى إلى الميدان باتخاذ كوبري السادس من أكتوبر إلى ميدان عبد المنعم رياض وصولا إلى التحرير وانطلاق المئات التي عبرت بالفعل عبر كوبري قصر النيل إلى الميدان.

على الجانب الآخر كانت مجموعة شبرا قد قوبلت ببعض الاعتراضات داخل شارع شبرا، إلا أن العدد أيضا الذي كان يفوق 5000 ساعدها على اجتياز الحواجز الأمنية التي كان أولها عند شارع شبرا، تلاه حاجز آخر عند ميدان رمسيس، ثم انطلقت إلى ميدان

التحرير لتصل تقريبا في الميعاد نفسه، لكن مجموعة إمبابة هي التي واجهت حصارا قويا، وظلت غير قادرة على فك الحصار عنها حتى قرب المغرب بعدها انضمت إلى الميدان في حوالي السابعة.

بوصول المجموعة الأولى إلى الميدان كان هناك تحرك من عدد كبير منهم باتجاه مجلس الشعب بشارع القصر العيني، وهناك ووجهوا بعدد كبير جدا من قوات الأمن وتم القبض على عدد من الشباب، وهو ما زاد حمية الناس في التوجه وخلق موجة أخرى في اتجاه مجلس الشعب، وحدث تبادل للرمي بالحجارة بين الجنود والمتظاهرين لكن أغلب المتظاهرين أخذ يهتف "سلمية... سلمية" وأخذت قوات الأمن تتقدم تحت غطاء الحجارة وتمركزت عند آخر شارع القصر العيني على ميدان التحرير.

كان الجميع مرهقا وربما كان الإرهاق أكثر من نصيب النشطاء الذين شعروا بحالة من الرضا بمشهد الجماهير الغفيرة غير المتوقعة، وربما خلد كثير منهم للنوم بعد يومين أو ثلاثة دون أن تغمض لأحدهم عين بين ترتيبات واجتماعات ومحاولة لاستكشاف خطوط السير، وظل الوضع جامدا لكن كان يتخلله تدفق مجموعات من الناس إلى الميدان، لكن قوات الأمن أخذت أيضا تعيد ترتيب صفوفها ويتم دعم كل مدخل للميدان بعدد من المدرعات والمركبات الأمنية خلف عدد ضخم من جنود الأمن المركزي، وتم قطع الشبكات اللاسلكية عن الميدان بأكمله والمنطقة المحيطة به، وكان يلزم الفرد لإجراء مكالمة هاتفية الخروج من الميدان باتجاه باب اللوق أو ميدان طلعت حرب حتى يتمكن من إجراء مكالمته في الوقت الذي كان الدخول والخروج لا يسلم من بعض المشادات في بعض الأحيان.

كانت الساعة حوالي الثامنة حينما بدأت روح جديدة تكسر الجمود في الميدان، حيث بدأ الشباب في كتابة لوحات تعبر عن مطالبهم، وأخذوا يغنون وينشدون أغاني الشيخ إمام والشيخ سيد درويش لاستنهاض الهمم رافعين لافتاهم المطالبة بإسقاط النظام وأخذوا في عمل مسيرات وسط اعتصامهم في الميدان، وتعدى عدد المعتصمين بالميدان السبعين ألفا .. وأعلنوا عن بدء اعتصامهم لحين تنفيذ مطالبهم.

عند منتصف الليل بدأت أبواق الشرطة تطلق صافراتها من مدرعاتها المتمركزة عند مداخل الميدان، وكان العدد قد تضاءل بعض الشيء، إلا أن الميدان كان لا يزال به أكثر من ثلاثين ألف متظاهر، وأخذ النشطاء يمرون على جموع المتظاهرين يحثونهم على الوقوف ويخبروهم أن هجوما لن يكون إلا عند الثانية صباحا عند تغيير الوردية حتى تعمل الشرطة على مضاعفة عدد جنودها عند فض الاعتصام. وهو الأمر الذي اعتادوا عليه في اعتصاماتهم الطلابية والعمالية طيلة الأعوام السابقة، وهو ما كانوا يتوقعه الناشطون ومن ثم أعطاهم أريحية في الوقوف مع المجموعات آملين في أن الوقت لا يزال أمامهم طويلا.

إلا أنه في الواحدة إلا الربع صباحا هاجمتهم قوات الأمن بكميات هائلة من القنابل المسيلة للدموع وإطلاق للخراطيش، وهو ما صنع حالة من الهرج والمرج قبل الوصول إلى جميع الناس وإعطائهم حلولا بديلة لاستمرار الحركة الثورية وبقاء الكتلة بالميدان، وخرج العديد من الناس من الميدان تتلقفهم الشوارع الجانبية فيعيدون تنظيم أنفسهم في مجموعات صغيرة خصوصا إذا صادفوا وجود أحد النشطاء معهم ليتصل بالغرفة المركزية، التي كانت توجههم إلى ميدان رمسيس، فيما توجه

كثير من الناشطين والثوار المستقلين إلى بيوتهم لعدم وجود قنوات اتصال حينها بينهم وبين نقاط مركزية يعتمدون عليها.

تجمع عدد يقترب من 3000 برمسيس وتوجهوا إلى شبرا لتحدث مواجهة قوية أعلى نفق شبرا استخدم فيها الخرطوش لتفريق المتظاهرين الذين كانوا يعاودون التجمع مرة أخرى في روض الفرج لمواجهة ثالثة، وما بين كر وفر وعدم قدرة المجموعة على التجمع بنفس العدد في كل مرة بدأ العدد يقل تدريجيا لينتهي اليوم الذي تفجرت فيه الثورة المصرية بغضب شعبـــي عارم، خاصة بعد العنف الأمني الواضح في فض الاعتصام وإصابة العديد من المتظاهرين، والقبض على الكثير من الشباب حتى أصبح كل حي في مصر لا يخلو من معتقل أو مصاب على خلفية الأحداث.

26-27 يناير.. ما قبل المعركة الحاسمة

استمرت المسيرات الشعبية في الخروج بشكل عفوي تماما، وأصبح الثأر لأحداث يوم الخامس والعشرين من يناير من الدوافع الرئيسة للخروج مع رغبة باتت أكيدة في الخلاص من النظام القائم وتغييره بنظام جديد يخلو من الفساد والاستبداد ويحقق العدل الاجتماعي.

كانت مشاركة النشطاء مقصورة على مسيرات وسط المدينة ومساندة من تم القبض عليهم وتلقي بلاغات المفقودين وحصرهم ومتابعة أماكن الاعتقال، وامتد نشاطهم الدعوي للحشد الجامع ليوم الجمعة في جميع أنحاء الجمهورية، كما أن توجيه الدعوات الإلكترونية عبر المواقع الاجتماعية ورسائل الموبايل التي كانت تنتشر بشدة بين الناس والتجهيز ليوم الثامن والعشرين من يناير هو الهم الأكبر لما سمي بجمعة الغضب.

ليلة جمعة الغضب

أعلن عن 13 مسجدا جامعا كبيرا أماكن للتجمع وانطلاق المسيرات صوب التحرير والدعوة إلى أن تنطلق مسيرة من كل جامع وكنيسة ظهر يوم الجمعة 28 يناير.

على الجانب الآخر اجتمع رؤوس المجموعات في لقاء سري جدا والهواتف النقالة جميعها مغلقة وبدون البطاريات لكسر أي محاولة للتتبع لرسم خط السير للمسيرة السرية التي كان مخططا لها أن تبدأ من منطقة الطالبية بالجيزة، وكذلك لوضع أساليب التنظيم التي سوف تتبع، وكيفية اتخاذ الإجراءات الاحترازية لمواجهة القوة الأمنية الغاشمة ليخرج كل منهم ويتصل بمجموعته ولا يعلمه شيئا إلا نقطة التقابل الخاصة بكل مجموعة. لكن تقع العديد من الاشتباكات بين الأمن وأهالي منطقة الطالبية، مما اضطر المجموعة بعد ذلك لتغيير نقطة الانطلاق إلى الجامع الكبير بإمبابة.

28 يناير.. جمعة الغضب

اليوم هادئ جدا وكأن شيئا لم يكن في الأيام السابقة، إلا انقطاع خدمة الرسائل القصيرة منذ منتصف الليل، وانقطاع الاتصالات اللاسلكية منذ التاسعة صباحا، كل قائد مجموعة يتوجه إلى مجموعته ويلتقي بهم، بل وربما اضطر للمرور على منازلهم لانقطاع الاتصال، وتذهب كل مجموعة منفردة للصلاة بالجامع الكبير[1].

---

1 الجامع الكبير مسجد شهير بمنطقة إمبابة، ومنه تسمى أحد أهم شوارع المنطقة الشعبية" شارع الجامع" (المحرر).

بعض الناشطات ذهبن للصلاة بجامع طلعت حرب[1] القريب من المكان لعدم وجود مصلى للسيدات بالجامع الكبير ومعهم قليل من الشباب، على أن يعودوا للمجموعة بعد الصلاة مباشرة للانضمام للمسيرة، لكن اختلاف الشيخين على المنبر كان كبيرا، فقد كان إمام مسجد طلعت حرب يخطب عن درء الفتنة بين الناس وطاعة ولي الأمر! وأطال خطبته لتصل إلى الساعة، بخلاف إمام الجامع الكبير الذي أوجز خطبته وكانت حماسية للغاية، مما جعل المسيرة تبدأ وتنطلق قبل انصراف من صلى بطلعت حرب من الصلاة، خرج الشباب من الجامع الكبير فهتفوا وهتف المصلون من خلفهم وبدؤوا خط سيرهم بين البيوت وحواري إمبابة باتجاه شارع أحمد عرابـــي.

كانت المجموعة التي أدت الصلاة بجامع طلعت حرب تنوي اللحاق بزملائهم، لكن مشهد المصلين أمام المسجد وهم في انتظار من يهتف بهم لتبدأ مسيرة أخرى كان دافعا قويا لهم ليهتفوا بالشعارات التي هتفت بها الجماهير ليلة الخامس والعشرين "الشعب يريد إسقاط النظام- تغيير.. حرية.. عدالة اجتماعية- يسقط يسقط حسني مبارك"، وبالفعل اصطف الناس في صفوف وجعلوا علم مصر من أمامهم، وتتجه المسيرة باتجاه خط السير المحدد سلفا للجامع الكبير للحاق بهم وسط مساكن إمبابة.

كانت اللحظة التي بدأت تتراءى فيها المجموعة الثانية للمجموعة الأم مليئة بالكثير من الانفعالات، فقد اندفع عدد من النشطاء من

---

1 شارع طلعت حرب بمنطقة إمبابة، وهو غير شارع طلعت حرب، أحد الشوارع الرئيسة بمنطقة وسط البلد القاهرية والذي يصلها بميدان التحرير. (المحرر).

المجموعة الأم باتجاه المجموعة الثانية، مخافة أن تكون المواجهة مع مسيرات مضادة قد بدأت مبكرا جدا، وأن تحدث وسط المساكن وقبل أن يصل الحشد أقصاه، ولكن عندما وجدوا أحد زملائهم على رأس المجموعة كان ذلك عاملا حافزا لهم بشدة.

كانت المجموعة الأم قد تعدت العشرة آلاف ورغم أن اللقاء تم بعد نصف ساعة فقط فقد قارب عدد المجموعة الثانية 5000، وكان اللقاء حماسيا بشدة، فقد بدأت إحدى المجموعات تهتف والأخرى ترد عليها، وتبادلوا التصفيق والترحيب بشدة لتنطلق المجموعتان بعد ذلك باتجاه شارع أحمد عرابـــي.

كانت هناك مسيرة أخرى على رأسها عدد من النشطاء من كوبري الوحدة[1] قرر لها أن تلتقي بمجموعة الجامع الكبير، ولكنها بقيت محاصرة بإمبابة و لم تلحق بهم.

عندما بدأ الحشد في صعود كوبري عرابـــي كان قد تعدى الخمسين ألفا، حتى إن الحشد كان أوله قد هبط الكوبري و لم يصعد آخره بعد، وتحركت الجموع باتجاه ميدان سفنكس والأعداد تتزايد، حتى إنها ربما وصلت السبعين ألفا عند لقائها بالمجموعة القادمة من ناهيا في ميدان سفنكس التي كانت تقارب الثلاثين ألفا، وكانت قد اشتبكت بالفعل مع قوات الأمن التي أخذت تمطرهم بكميات هائلة من قنابل الغاز المسيل من فوق كوبري 15 مايو.

اتجهت الجموع لاتخاذ الطريق البديل عبر العجوزة إلى شارع البطل أحمد عبد العزيز، ورفض عدد كبير من المجموعة القادمة من ناهيا الانسحاب مع الحشود عبر العجوزة، على أن تظل محتمية

---

1 كوبري ملاصق لمستشفى الحميات، المستشفي الكبير في منطقة إمبابة الشعبية. (المحرر).

بالكوبري، وتبرز من آن لآخر لأفراد الأمن حتى يبقوهم دون اللحاق بالمجموعات الأخرى في ميدان التحرير.

وتستمر المسيرة عبر شارع التحرير باتجاه ميدان الدقي، حيث اصطف عدد هائل من قوات الشرطة أعلى كوبري الجلاء لمنع المسيرة من الاتجاه صوب ميدان التحرير، ويبدأ إطلاق غزير للقنابل المسيلة للدموع، حتى إن إحداها تصيب محطة الوقود بالميدان، وتشعل أخرى النيران بشقة سكنية بالمكان، وتنضم مجموعة كبيرة من المتظاهرين القادمين من ميدان الجيزة إلى الحشد الهائل الذي بات يفوق الربع مليون نسمة، ويكون لانضمامهم دافع كبير، ويحدث الرهبة لدى الشرطة التي بدأت تتراجع خلف الكوبري مخلفة وراءها إحدى سيارات الأمن المركزي.

اعتلى بعض الشباب سيارة الأمن بينما تمر الجموع باتجاه كوبري قصر النيل تحت قصف هائل من القنابل المسيلة التي بدأت يطلقها معسكر الحرس الجمهوري المواجه للأوبرا بالمشاركة مع قوات الأمن المركزي، ولكن مجموعة من الشباب تتقدم المسيرة تبدأ في تلقي القنابل وإعادة إلقائها باتجاه قوات الأمن المركزي أو إبعادها عن المتظاهرين، وتظهر تشكيلات عديدة من قوات الأمن أعلى كوبري قصر النيل وتبدأ قوات الأمن في إطلاق الخرطوش والرصاص المطاطي، ويستبسل الشباب ويصاب الكثير منهم لكن دون الرجوع عن التقدم باتجاه الميدان، ويصاب البعض في عينه ويعود للخلف ليتقدم مكانه غيره، وتنسحب أمامهم قوات الأمن حتى منتصف كوبري قصر النيل، ويصلى المتظاهرون صلاة العصر أعلى الكوبري وقوات الأمن ترشهم برشاشات المياه من فوق سيارات الإطفاء وعربات للأمن المركزي.

لم يكد المتظاهرون يفرغون من الصلاة حتى انهمرت عليهم كميات هائلة من قنابل الغاز، وتحت إطلاق غزير للرصاص المطاطي يتقهقر المتظاهرون للخلف حتى أول كوبري قصر النيل، وهنا فقط يبدأ المتظاهرون في إلقاء الحجارة لمحاولة فض خطوط الأمن التي تمطرهم بكميات هائلة من الرصاص المطاطي، ويستمر تبادل إطلاق الرصاص بالحجارة، وتتراجع قوات الأمن أمام بسالة الشباب وتتقهقر خلف كوبري قصر النيل، ويتم إعاقة حركة إحدى سيارات الأمن المركزي أثناء انسحابها، وكانت لحظة أسرها عنوانا أكيدا أن النصر بات قريبا. ويصلي المتظاهرون المغرب عند نهاية الكوبري خلف الصفوف الأولى المشتبكة مع قوات الأمن بين وزارة الخارجية وجامعة الدول العربية ويتم قنص بعض الشباب بالرصاص الحي.

كان مشهد الصفوف الأولى يجمع بين كل فئات المجتمع المصري، كان بعض الشباب يبدون من لباسهم ذي الماركات الشهيرة أنهم من الطبقة العليا والطبقة فوق المتوسطة، حتى المجموعات التي يدل لبسها على أنها تنتمي للطبقات الكادحة والفقيرة، الكل يعمل معا وكأنهم فريق واحد اعتادوا العمل سويا، يحمي بعضهم بعضا ويهب كل منهم لتقديم الخل والبصل وزجاجات "الكولا" للعائد منهم بعد إعادة إلقاء قنابل الدخان على قوات الأمن.

كانت الجموع قد توقفت عند كوبري قصر النيل، وبقيت المسافة بين الكوبري وميدان التحرير يجوب فيها 200 شاب جيئة وذهابا لإعادة قنابل الغاز، ويصاب كثير منهم بالرصاص، ويسقط بعضهم شهداء ويتم حملهم وإعادتهم للجموع، حتى فوجئ الشباب تحت الضغط بانسحاب قوات الأمن المركزي وهروبهم في سياراتهم بأقصى سرعة، بينما يقذفها المتظاهرون بالحجارة.

كانت مسيرة أخرى خرجت من شارعي فيصل والهرم، وظلت في مواجهات ساخنة طيلة اليوم في منطقة العمرانية، بينما كانت هناك ملحمة أخرى لا تقل أهمية تجري على الجانب الآخر شرق القاهرة، فبعد إطلاق قنابل الغاز على مصلين في صلاة الجمعة بمساجد رابعة العدوية بمدينة نصر والنور بالعباسية والفتح برمسيس، انطلقت مسيرة من مسجد رابعة العدوية، وكانت تسابق قوات الأمن التي انسحبت سريعا لتتمركز برمسيس، وانضمت المسيرة إلى مثيلتها التي خرجت من جامع النور ليتجها معا إلى ميدان رمسيس.

وكانت مسيرة قد خرجت من جامع الخازندار بشبرا قد سبقتهم إلى هناك ليبدأ السيناريو نفسه لكوبري قصر النيل بشارع الجلاء، وبين كر وفر وتحت قصف قنابل الغاز ظلت قوات الأمن تتقهقر وصولا إلى ميدان عبد المنعم رياض، حيث بدأ بعض القناصة في قنص بعض المتظاهرين مع سيل هائل من الرصاص المطاطي تطلقه قوات الأمن المركزي باتجاههم.

مع صلاة المغرب تبدأ عربات الجيش في النـــزول، ويهلل لها الشباب ولكن يفاجؤون بأنها تمد الأمن المركزي بالسلاح، وتتم السيطرة على عربتين ومدرعة ويتم إشعال النار فيهم فينسحب الأمن المركزي فجأة من أمام المتظاهرين، وتعلن عربات الجيش أنها جاءت لفض الاشتباك وأنها لن تطلق النار باتجاه المتظاهرين.

كانت هناك مسيرة حاشدة قد انطلقت من دار السلام والبساتين باتجاه التحرير لتلتقي بالقادمة من السيدة زينب وجامع عمرو بن العاص بمصر القديمة، وينطلقا معا عبر شارع القصر العيني باتجاه الميدان في مواجهة مماثلة حتى اقتحام الميدان وهروب الأمن المركزي.

وتنطلق الحشود في اتجاه ميدان التحرير الخالي لتلتقي مع القادمين من فوق كوبري قصر النيل، ويتجه عدد كبير منهم إلى وزارة الداخلية محاولين اقتحامها، وأخذ القناصة يحصدون الشباب واحدا بعد الآخر، لكن الشباب كانوا مصرين على اقتحامها، ورغم أن كثيرا من السياسيين كانوا يسعون لمنعهم متوقعين أنها خاوية بالتأكيد كان الشباب لا يمتنعون عن الرغبة في اقتحامها موقنين أن وزير الداخلية بداخلها كما تأكد بعد ذلك حيث أعلن أنه تم تهريبه في إحدى المدرعات التابعة للجيش في وقت لاحق.

في الوقت نفسه كانت مجموعة أخرى قد توجهت للمقر الرئيس للحزب الوطني بالكورنيش ووجدوا سيارة خاوية للأمن المركزي أمامه تسد المدخل وبدؤوا في إلقائه بالحجارة وتشتعل السيارة الموجودة بالمدخل وتنتقل النيران إلى الداخل ليشتعل المبنى بأكمله.

كانت مجموعة ثالثة تحاول اقتحام مبنى الإذاعة والتليفزيون، وقام عدد من المتظاهرين باقتحام بهو الاستقبال، لكن القوات المسلحة كانت قد سيطرت عليه وعملت على إخراج المتظاهرين.

انفض عدد كبير من الناس، خاصة المصابين منهم، كل يبحث عن مكان يداوي فيه جراحه، ومع وجود مجموعات تمركزت أمام وزارة الداخلية وأخرى عند الحزب وثالثة عند التليفزيون بقي عدد لا يزيد عن عشرة آلاف متظاهر بالميدان أعلنوا اعتصامهم بميدان التحرير حتى سقوط نظام مبارك، ليبدأ كثير جدا من الشباب في الانضمام إليهم، خاصة بعد الخطاب المخيب للآمال الخالي تماما من أي نظرة سياسية للواقع وغير المتناسب مع المطالب التي هتف بها المتظاهرون، لتبدأ مرحلة أخرى كانت البلطجة والتلاعب بالعامل

النفسي للمواطنين البسطاء سلاحها، وكان الاعتصام عنوان المرحلة الاحتجاجية في مواجهتها.

الفصل الرابع

نحو عقد اجتماعي جديد

مسارات التفاوض في مصر الثورة

عبد الرحمن عياش(*)

تصدير

إن الحوار الوطني الذي حدث أثناء وبعد الثورة المصرية بين الثوار والسلطة في مصر، أثبت بما لا يدع مجالا للشك أن طرف التفاوض الأول (الثوار) ممثلا للشعب المصري قد تخلى عن قناعته بأنه يخضع لسلطة أبوية فوقية، وأن السلطة المصرية ممثلة في النظام السابق، وفي الجيش على وجه الخصوص قد تعاملت مع الشعب المصري بندية واضحة، وبلا أي حس للتعالي فرضته سنون القهر.

مقدمة

"أيها الإخوة المواطنون: لقد بادرت بتشكيل حكومة جديدة، بأولويات وتكليفات جديدة، تتجاوب مع مطالب شبابنا ورسالتهم، وكلفت نائب رئيس الجمهورية بالحوار مع كافة القوى السياسية،

(*) ناشط وباحث سياسي.

للحوار حول كافة القضايا المثارة للإصلاح السياسي والديمقراطي، وما يتطلبه من تعديلات دستورية وتشريعية، من أجل تحقيق هذه المطالب المشروعة، واستعادة الهدوء، والأمن والاستقرار". ربما كانت البداية المعلنة لبدء الحوار بين الثوار والنظام المصري عندما أعلن الرئيس مبارك في خطابه الثاني (الأول من فبراير) عن تكليفه نائبه عمر سليمان بإدارة حوار مع المعارضة المصرية بأطيافها وتوجهاتها كافة، عقب أسبوع من التظاهرات التي جابت أنحاء الدولة المصرية.

لكن محاولات سبقت هذا التكليف، قام بها بعض مستشاري الوزراء وبعض الوزراء، وقيادات في الحزب الوطني الحاكم للتواصل مع المتظاهرين في ميدان التحرير. مصطفى النجار (المنسق العام لحملة دعم البرادعي ومطالب التغيير) يحكي[1] عن الاتصال الذي دار بينه وبين مكتب وزير الإعلام المصري أنس الفقي، وحاول فيه مستشار وزير الإعلام أن يحث بعض قيادات المتظاهرين على التوجه إلى الفقي للقائه للتفاوض حول وضع المتظاهرين في الميدان.

هذه المحاولات لم تكن فقط موجهة للمتظاهرين في ميدان التحرير، بل أخذت أشكالا أخرى من التواصل مع أطراف أخرى، فلجنة الحكماء التي كانت تضم أشخاصا بارزين في النخبة المثقفة المصرية، مثل الدكتور أحمد كمال أبو المجد، والدكتور محمد سليم العوا، والدكتور عمرو حمزاوي، والفقيه الدستوري يحيى الجمل ... وغيرهم... تمت دعوتهم أيضا للحوار مع النظام المصري ممثلا في رئيس الوزراء الفريق أحمد شفيق، ونائب الرئيس السيد عمر سليمان.

---

1 مصطفى النجار المنسق العام لحملة البرادعي ومطالب التغيير، مقابلة شخصية، القاهرة، 10 أبريل 2011.

الحوار الذي كان مقررا له أن يبدأ مع الشباب بأسرع وقت ممكن، عقب خطاب مبارك، لم يكن له أن يتم بهذا الشكل بعد "موقعة الجمل"، التي اقتحم فيها مئات البلطجية المنتمين للأمن والتابعين للحزب الوطني ميدان التحرير، مستخدمين الجمال والخيول والعصي والأسلحة البيضاء.

الموقعة التي حدثت يوم الأربعاء (الثاني من فبراير) عقب يوم واحد من خطاب مبارك الداعي للحوار، أجهضت أي مساع لحوار سريع ومؤثر في مجرى الأحداث بين ثوار التحرير والنظام المصري، فمحاولات بدء الحوار التي تواصلت منذ الخميس (الثالث من فبراير) لم تستطع ترتيب لقاء بين عمر سليمان وبعض شباب الثوار إلا بعد ثلاثة أيام (الأحد السادس من فبراير). وبعد خمسة أيام من أول لقاء جمع شباب التحرير وعمر سليمان، حدث التحول الأبرز في تاريخ السياسة المصرية الحديثة، وأعلنها عمر سليمان في وجوم عبر خطاب مقتضب، إذ أعلن تخلي الرئيس حسني مبارك عن منصبه رئيسا للجمهورية.

ربما يتصور البعض أن الحوار بين الثوار والنظام المصري قد انتهى عند هذا الحد، لكن الحقيقة أن الحوار لم يكن قد بدأ بعد، فالثوار الذين استطاعوا في 18 يوما أن يزيلوا من رأس السلطة في مصر، أحد أقدم الدكتاتوريين الذين يقبعون على أنفاس شعوبهم منذ عشرات السنين، لم يكونوا على استعداد لأخذ سِنة من الراحة ولسان حالهم يردد ما قاله الطلاب في فرنسا في 1789 "الذين يصنعون أنصاف الثورات لا يفعلون شيئا سوى حفر قبورهم". فمع رحيل مبارك وبدء تهاوي أركان نظامه واحدا تلو الآخر، كان لا بد للحوار أن يأخذ منحى جديدا، والحوار مع المجلس الأعلى

للقوات المسلحة أخذ منحى مختلفا بالفعل، فمع الأسماء الجديدة التي طلب المجلس العسكري لقاءها، ومع الوضع الجديد الذي انتقلت إليه مصر السياسية، كان لا بد للحوار أن يأخذ شكل البناء، لا الشكل الذي كان فيه المطلب الرئيسي للثوار، وهو إزالة نظام الرئيس.

والحوار مع الجيش المصري في مجمله كان يعكس التقدير الفائق من قِبل الثوار لدور الجيش المصري في الثورة، والتعبير الذي استخدمه المفكر العربـــي عزمي بشارة من أن "جيش مصر اختطف اللحظة التاريخية" كان معبرا للغاية عن وضع الجيش في نفوس المصريين وفي القلب منهم الثوار.

الحوار الذي أثر وسيؤثر على مدار سنوات مقبلة على العلاقة بين الحاكم والمحكوم في مصر، مر بمنعطفات خطيرة لا يمكن تجاهلها أثناء دراسة ملف التفاوض بين الثوار من ناحية والسلطة من ناحية أخرى، ممثلة في الجيش المصري.

ويجب قبل الخوض في تفاصيل البحث أن نؤكد على أن الحوار الوطني بين النظام والثوار كان متعدد الأبعاد ومتعدد الأطراف، لكن المسارات التي أسفرت عن تأثير حقيقي في المعادلة السياسية المصرية لا تعبر عن عدد الأطراف التي شاركت في الحوار، وفي هذا الفصل أحاول الاقتراب من ملف التفاوض الذي دار بين الثوار المصريين والسلطة المصرية عبر محورين أساسيين:

- النظام إذ يحتضر... ويفاوض
- اختطاف اللحظة... دور الجيش

النظام إذ يحتضر.. ويفاوض

كان الخطاب الثاني للرئيس حسني مبارك مخيبا للآمال إلى حد بعيد، فبعد توقعات العديدين بأن الرئيس سيعلن تنحيه في هذا الخطاب، خاصة بعد المظاهرة المليونية التي شهدها ميدان التحرير والعشرات من الميادين الرئيسية في محافظات مصر المختلفة صباح يوم الخطاب (الأول من فبراير).

ومع انتهاء الخطاب، اندفعت المظاهرات العشوائية من الشوارع المؤدية إلى ميدان التحرير، متجهة إلى الميدان، منددة بخطاب الرئيس الذي لم يحقق ولو نــزرا يسيرا من مطالب الشعب المصري، لكن أحدا من الثوار في ميدان التحرير -بغض النظر عن بعض ممثلي الأحزاب الرسمية، وقليل من النخبة السياسية في مصر- لم يلتفت كثيرا لحديث الرئيس حول تكليفه نائبه بإجراء حوار مع المعارضة، ورفض بعض قوى المعارضة الرئيسة للحوار مثل جماعة الإخوان المسلمين والدكتور البرادعي.

محاولات الحوار -الجاد- التي بدأت في اليوم الثاني لخطاب الرئيس أجهضها الاقتحام الذي قام به المئات من البلطجية والمنتمين للحزب الوطني ورجال الأمن في زي مدني لميدان التحرير، ما عُرف بعدها بـــ "معركة الجمل"، خاصة أنه كانت هناك بعض المؤشرات على عدم استقرار الرأي السياسي على بدء حوار حقيقي مع المعارضة[1]. لكن بعض القوى السياسية وجدت أنها تستطيع الحصول

---

1 عمر سليمان: لا حوار مع المعارضة إلا بعد وقف التظاهر، تقرير، موقع مصراوي، 2 مارس 2011

http://www.masrawy.com/news/egypt/politics/2011/February/3/omar_speech.aspx

على مكاسب سياسية باقترابها من النظام (الذي لم تكن قد ظهرت بوادر انهياره الكامل بعد)، فوجدنا العناوين تتصدر الصحف في الخميس الثالث من فبراير، أي في اليوم التالي لمعركة الجمل، بأن عمر سليمان التقى قيادات حزبية وسياسية[1]. وكان من بين هذه القيادات الدكتور السيد البدوي رئيس حزب الوفد.

وفي يوم السبت الخامس من فبراير، عقد لقاء ثان جمع بين قيادات حزبية وسياسية أيضا، كان من بينها الدكتور رفعت السعيد رئيس حزب التجمع اليساري بالإضافة للدكتور السيد البدوي[2]، وكانت جماعة الإخوان حتى هذه اللحظة رافضة للحوار غير المشروط بتنحي الرئيس مبارك كمطلب رئيسي للثوار في مصر. وفي هذه الأثناء وما قبلها كانت ما يُعرف بـــ "لجنة الحكماء" قد تشكلت من بعض ممثلي النخبة الثقافية والسياسية في مصر، محاولة الوصول إلى أرضية مشتركة للحوار مع النظام، وكان أول من التقى النظام ممثلا عن لجنة الحكماء في الجمعة الرابع من فبراير الدكتور أحمد كمال أبو المجد ومعه السفير نبيل العربـــي (اختير وزيرا للخارجية في حكومة عصام شرف بعد ذلك، ثم انتخب أمينا عاما للجامعة العربية في مايو 2011)[3].

---

1 البرادعي والإخوان رفضا المشاركة: عمر سليمان يبدأ الحوار مع قوى وأحزاب معارضة، جريدة الاتحاد، 3 فبراير 2011
http://www.alettihad.net/archives/2457

2 رئيس حزب الوفد لـــ «الشرق الأوسط»: الرئيس هو الضمانة لإجراء تعديلات دستورية حقيقية، الشرق الأوسط، 5 فبراير 2011
http://www.aawsat.com/details.asp?section=4&issueno=11757&article=606959http://www.aawsat.com/details.asp?section=4&issueno=11757&article=606959

3 عمر سليمان ولجنة الحكماء يبحثون السبت نقل صلاحيات الرئيس كاملة لنائبه "فورا، جريدة الاتحاد، 5 فبراير 2011
http://www.alettihad.net/archives/2497

تشكلت لجنة الحكماء من أكثر من 40 عضوا من بينهم د.كمال أبو المجد، ود. أحمد زويل، ونجيب ساويرس، ونبيل العربى، وسلامة أحمد سلامة، وإبراهيم المعلم، ووحيد عبد المجيد، وعبد العزيز الشافعى، وعمرو حمزاوى، وجميل مطر، وعمرو الشوبكى، وميرفت التلاوى، وعلي مشرفة، ومن الأسماء التى طلبت الانضمام لها وكانت في حالة انعقاد دائم أثناء هذه الفترة: عمرو موسى، وجودت الملط، ود.أسامة الغزالى حرب، ومنير فخري عبد النور، ومحمود سعد.[1]

إلا أن العديدين من الشباب المتواجدين في ميدان التحرير في هذا الوقت لم يتقبلوا وجود لجنة الحكماء من الأساس، ولم يعتبروا وجودها معبرا عن روح التحرير الحقيقية، فمثلا قال أحمد دومة وهو ناشط سياسي كان موجودا في الميدان منذ الأيام الأولى في حوار مع صحيفة اليوم السابع "دعوني أقول إن من يعلن عنه في التحرير من أسماء هم فقط من سيتم الاعتراف بهم للتفاوض"، وهو ما قاله ضياء الصاوي أمين الشباب بحزب العمل المصري بكلمات أخرى "لن نرحل قبل أن نأتي بحق الشهداء، ولجنة الحكماء لا تمثلنا، وأي شخص يطرح التفاوض في ظل وجود مبارك لا يمثل الناس التي تسكن ميدان التحرير، النقطة المركزية التي تدار منها ثورة مصر."[2]

لكن مسار الحوار بين لجنة الحكماء والنظام لم يستمر طويلا، ومع تضاؤل دور اللجنة على المستوى الفعلي، مع عدم تجاهل الحجم

---

1 (المصدر السابق)

2 شباب التحرير: لا نعرف شيئا اسمه لجنة الحكماء و95% من متظاهرى التحرير يرفضون التفاوض قبل رحيل الرئيس، اليوم السابع فبراير 2011
http://www.youm7.com/News.asp?NewsID=347563&SecID=12

الفكري والسياسي الذي يمثله أعضاء اللجنة، كان هناك مسار آخر على وشك أن يبدأ، أو كان قد بدأ بالفعل.

سأعود مرة أخرى لليوم التالي لمعركة الجمل، وللمفارقة، فقد كان كاتب هذه السطور في مكتب إعلامي في محيط ميدان التحرير يحاول أن يتواصل مع العالم الخارجي لتوضيح حقيقة ما يحدث عبر التعاون مع شبكة رصد الإخبارية على فيسبوك، بالإضافة للتواصل مع الصحافة العربية والأجنبية ومحاولة مراسلة سياسيين ودبلوماسيين على مستوى العالم.

المكتب الذي كان يمتلكه عطاء سعيد، وهو مدير لإحدى المؤسسات الإعلامية، كان مقر اجتماع حقيقي للثورة، فكان ملجأ العديد من الإعلاميين الذين يطلبون المعلومات أو الراحة، كما أنه كان أيضا مقرا لبعض النشطاء السياسيين الذين يأتون للمكان لقربه من الميدان. وفي ذلك اليوم الذي تلا "معركة الجمل"، وجدت أحد القيادات الصحفية في الأهرام، في مكتب الأستاذ عطاء، وهو يتساءل عن طبيعة عملي أنا وصديقي في "شبكة رصد"، وفجأة انتقلت دفة الحديث، لتكون عن إمكانية مقابلة عمر سليمان وأحمد شفيق في اليوم التالي (الجمعة الرابع من فبراير).

وبعد قليل من التفكير، وبعض الاتصالات للتشاور حول الموافقة أو الرفض، أجرى القيادي الصحفي بعض المكالمات، وأخبرنا أننا الآن في انتظار مندوب شخصي من رئيس الوزراء للتنسيق حول الحوار الذي يجب أن يتم في أسرع وقت بهدف "حقن الدماء" عقب الأربعاء الدامي الذي أسفر عن استشهاد 11 متظاهرا وإصابة ما يقرب من 1000 آخرين.

وبعد ما يقرب من نصف الساعة، وصل إلينا الدكتور يحيى مصطفى كمال حلمي، الأستاذ بجامعة حلوان، ونجل المرحوم مصطفى كمال حلمي الوزير ورئيس مجلس الشورى الأسبق، بصفته مبعوثا وصديقا شخصيا للفريق أحمد شفيق رئيس مجلس الوزراء.

كان الدكتور حلمي متفهما للغاية مطالب الشباب، ومستاء أشد الاستياء مما حدث من البلطجية، وكان يبدو أنه لديه من المعلومات المؤكدة عن المحرضين ما يكفي لاعتقالهم وتقديمهم للمحاكمة، وهو ما وعد به لاحقا، لكن الدكتور حلمي كان مهتما للغاية بعمل جسر للتواصل بين الفريق شفيق وبالطبع اللواء عمر سليمان من جهة، والثوار وشباب المتظاهرين من جهة أخرى.

وتحدث عن أننا يجب أن نرتب لقاء بين الشباب والفريق شفيق، لمعرفة الأرضية التي نقف عليها، ولضمان تأمين المتظاهرين، وأيضا لإيصال المطالب بشكل مختلف عن اللقاءات مع "الحكماء" وغيرهم ممن لا يمثلون الشباب تمثيلا حقيقيا في الميدان.

ولكوني لا أعتقد أني أمثل الشباب في الميدان، فقد حادثت الدكتور مصطفى النجار، أحد منظمي تظاهرات 25 يناير بصفته المنسق العام للحملة الشعبية لدعم البرادعي ومطالب التغيير، ولكونه من منظمي التظاهرات ومن المتواجدين في الميدان منذ اليوم الأول، كان من المنطقي للغاية اعتباره من المعبرين عن الشباب في الميدان، حتى وإن لم يكن مفوضا للحديث باسمهم.

مصطفى النجار من جانبه رحب بلقاء الدكتور حلمي، ونزلنا سويا إلى الميدان في الواحدة من صباح الجمعة لنقابل مصطفى النجار، حيث كان المشهد مؤلما للغاية، عشرات الجرحى

من أعقاب معركة الأمس، وحالة غير مسبوقة من الترقب والحذر على كل مداخل الميدان.

وفي الميدان، أثبت الواقع أن الشباب ليس لهم قائد، فالشباب على مداخل الميدان لا يعرفون النجار، كما أنهم لا يهتمون كثيرا بوجود الدكتور حلمي، وفتشونا ذاتيا أكثر من مرة، ما أوصل رسالة للدكتور حلمي مفادها أن هؤلاء الشباب ليس لهم قائد، وأن أيا من الممثلين لشباب التحرير لن يكون له سلطة التفاوض نيابة عنهم. لكن الدكتور حلمي أكد رغبته ورغبة الفريق شفيق في لقاء شباب التحرير وممثليهم، وهو ما أجاب عنه مصطفى النجار بأنه لن يحدث بغير ضمانات لتأمين المتظاهرين في الغد (الجمعة المليونية 4 فبراير). وهو ما وعد به الدكتور حلمي، واتصل أكثر من مرة أثناء ذلك برئيس الوزراء، الذي أكد أنه يضمن شخصيا تأمين المتظاهرين في التحرير، وتم الاتفاق على السبت 5 فبراير للقاء اللواء عمر سليمان والفريق شفيق مع ممثلي الشباب ومنهم مصطفى النجار. لكن اللقاء تم تأجيله لليوم التالي، الأحد 6 فبراير، الذي يعد بالفعل يوما مختلفا في مسار الحوار بين النظام والمعارضة المصرية.

في السادس من فبراير تم عقد لقاء جمع بين عمر سليمان وستة من شباب التحرير هم: عبد الرحمن يوسف ومدحت أبو السعود وكريم ضياء الدين وداليا متولي ومصطفي النجار وياسر الهواري.[1]

كان الحوار "وديا" حسب مصطفى النجار، فقد وقف عمر سليمان دقيقة حدادا على أرواح الشهداء في بداية اللقاء، كما أن الإخوان ولأول مرة شاركوا في لقاءات عمر سليمان عبر ممثليهم

---

1 شباب الميدان يحاور سليمان.. والاعتصام مستمر، الأهرام، 7 فبراير
http://www.ahram.org.eg/The-First/News/61619.aspx

الدكتور محمد مرسي والدكتور سعد الكتاتني المتحدثين الرسميين باسم الجماعة.[1]

وأثناء اجتماعات يوم السبت، قدمت القوى السياسية والشباب عدة مقترحات لنائب الرئيس، وتمت مناقشة بعضها أثناء الاجتماعات، كان من بينها مقترح للإخوان بحل مجلسي الشعب والشورى قبل رحيل مبارك، وتولي رئيس المحكمة الدستورية العليا السلطة. توصل المتحاورون مع عمر سليمان يوم السبت 5 مارس إلى 6 إجراءات، منها تشكيل لجنة تضم أعضاء من السلطة القضائية وعددا من الشخصيات السياسية لدراسة واقتراح التعديلات الدستورية وما تتطلبه من تعديلات تشريعية لبعض القوانين المكملة للدستور في موعد ينتهي في الأسبوع الأول من مارس، بجانب إعلان الحكومة عن فتح مكتب لتلقي الشكاوى عن معتقلي الرأي من جميع الانتماءات والإفراج عنهم فورا، مع تعهد الحكومة بعدم ملاحقتهم، أو التضييق عليهم في ممارسة نشاطهم السياسي، إضافة إلى تحرير وسائل الإعلام والاتصالات، وعدم فرض أي قيود على أنشطتها تتجاوز أحكام القانون، مع تكليف الأجهزة الرقابية والقضائية بمواصلة ملاحقة الفاسدين والمسؤولين عما شهدته البلاد من انفلات أمني في أيام الثورة ومحاسبتهم.[2]

---

1 عمر سليمان يلتقي بممثلين عن الأحزاب وشباب "25 يناير"، سي إن إن العربية، 8 مارس 2011

http://arabic.cnn.com/2011/egypt.2011/2/6/brotherhood.egypt/index.html

2 تفاصيل الحوار الوطني بين عمر سليمان والأحزاب وشباب المعتصمين، اليوم السابع، 10 مارس 2011

http://www.youm7.com/News.asp?NewsID=349281&SecID=295&IssueID=153

الشباب من جانبهم أكدوا أكثر من مرة أنهم لا يمثلون أحدا في الميدان، وقالت داليا متولي في حوار لها مع جريدة المصري اليوم "نحن شباب مصريون نعيش كل الظروف الصعبة التي يعيشها كل شباب مصر، ولم نعبر عن كل الشباب، لأن المنطق يقول إن الناس لا تتفق على شيء واحد، ولن نمثل كل الشباب."[1]

إلا أن هذا لم يشفع لهم عند الكثيرين داخل الميدان، الذين قالوا إنهم لم يفوضوا أحدا للتحدث باسمهم، كما أنهم لا يعرفون من هم هؤلاء الذين يفاوضون النظام، وأعلن المسؤولون عن الإذاعة الداخلية في ميدان التحرير أسماء المشاركين من الشباب في لقاء عمر سليمان قائلين إنهم لا يمثلون الميدان ولا الثوار، مؤكدين أن الحوار لن يكون قبل رحيل مبارك.[2] وفي غضون ذلك نقلت الصحف عن بعض أطراف في الحوار الوطني رضاهم عن سير التفاوض مع عمر سليمان.[3]

وفي الأيام التي تلت ذلك، لم يكن هناك نشاط يُذكر على مستوى الحوار الوطني بين الشباب والنظام المصري، إلا أن نائب الرئيس لم يتوقف عن اللقاءات مع المثقفين ورؤساء تحرير الصحف

---

1 حوار منصور كامل وهيثم الشرقاوي،«شباب 25 يناير» يتحدثون لـ«المصري اليوم» عقب لقائهم مع «سليمان»: طلبنا من نائب الرئيس أن يأخذ «ثأرنا» من رموز الفساد ومحاكمة عاجلة لـ«العادلي»، المصري اليوم، 8 فبراير 2011
http://www.almasry-alyoum.com/article2.aspx?ArticleID=287221&IssueID=2039

2 مطالب بتوسيع احتجاجات ميدان التحرير، الجزيرة نت، 7 فبراير 2011
http://www.aljazeera.net/NR/exeres/AAD283AB-C471-4687-9B08-774D6A22883C.htm

3 توافق بين القوي السياسية وعمر سليمان، الأهرام، 6 فبراير 2011
http://www.ahram.org.eg/435/2011/02/06/25/61506/219.aspx

وبعض السياسيين.[1] إلى أن جاء يوم الجمعة، الحادي عشر من فبراير، وأعلن النائب.. تنحي السيد الرئيس.

اختطاف اللحظة.. دور الجيش

وإن كان تنحي مبارك المطلب الرئيسي للثوار في مصر، لم تكن إزالة الرئيس تعني على الإطلاق انتهاء الثورة أو عودة الثوار إلى بيوتهم، وهو ما ظهر جليا في سير الحوار بين الثوار والسلطة في مصر، السلطة التي مثلها ولأول مرة منذ ثورة يوليو 1952: العسكر، فالجيش الذي رفض إطلاق النار بعد أوامر مبارك المباشرة بـــ "سحق المتظاهرين في التحرير"،[2] لم يقتنص اللحظة التاريخية فحسب، لكنه استطاع وبجدارة الفوز بقلوب المصريين عبر بعض الرسائل التي أكد بها الجيش وقوفه مع الثورة ومطالبها المشروعة.

ومنذ اليوم الأول لتنحي مبارك، بدأ الجيش المصري في العمل على التواصل مع أطراف الثورة، فاجتمع المجلس الأعلى للقوات المسلحة بصحفيين وبرؤساء تحرير الصحف القومية والمستقلة[3] وبرؤساء الأحزاب وبعض ممثلي القوى السياسية والوطنية، لكن الحوار الرئيسي الذي أكمل مسار التفاوض بين السلطة والثوار في

---

1 عمر سليمان يلتقي رؤساء تحرير الصحف غدا، اليوم السابع، 7 فبراير 2011
http://www.youm7.com/News.asp?NewsID=347941&

2 Robert Fisk: As Mubarak clings on... What now for Egypt, Robert Fisk, The independent-11 feb.2011
http://www.independent.co.uk/opinion/commentators/fisk/robert-fisk-as-mubarak-clings-on-what-now-for-egypt-2211287.html

3 المجلس الأعلى للقوات المسلحة يجتمع بمسؤولي الصحف القومية والخاصة، بوابة الأهرام، 15 فبراير 2011
http://goo.gl/um6iv

مصر، كان بعد دعوة المجلس الأعلى للقوات المسلحة بعض الشباب ممثلي القوى السياسية، وأعضاء ائتلاف شباب الثورة للقاء، تكرر مرتين بعد ذلك.

ائتلاف شباب الثورة الذي تكون من ممثلي قوى وطنية وأحزاب سياسية وناشطين مستقلين، أثناء الأيام الأولى للثورة في ميدان التحرير، كان يعبر وبشكل قوي عن مزاج المعتصمين في ميدان التحرير، فالائتلاف الذي رفض لقاء عمر سليمان أو الحديث إلى أحمد شفيق، لكونهم "فاقدي الشرعية"، استطاع وبقوة أن يجذب انتباه المجلس الأعلى للقوات المسلحة.

فالائتلاف الذي يمكن القول إنه ضم مختلف الاتجاهات السياسية الرئيسية في مصر، كان يضم أسماء مثل: شادي الغزالي حرب وعمرو صلاح (عن حزب الجبهة الديمقراطية)، ومصطفى شوقي (عن حركة العدالة والحرية-يسار)، وطارق الخولي وعمرو عز ومحمود سامي (حركة 6 أبريل)، وإسلام لطفي ومحمد القصاص (عن الإخوان المسلمين)، وزياد العليمي وعبد الرحمن سمير (عن الحملة الشعبية لدعم البرادعي ومطالب التغيير)، وعبد الرحمن فارس وناصر عبد الحميد وسالي توما كنشطاء مستقلين. وفي يوم الأحد، الثالث عشر من فبراير، وبعد يومين من تنحي مبارك، دعا المجلس العسكري عددا من الشباب الذين يمكن اعتبارهم من "رموز الثورة" للقاء في مقر المجلس الأعلى للقوات المسلحة.

المجلس الذي طلب لقاء ثمانية من شباب التحرير في اجتماعه الأول لم يغفل أن يضم خمسة أسماء من أعضاء ائتلاف شباب الثورة، وهم:

* محمد عباس (من شباب الإخوان المسلمين، عضو الائتلاف).

* عبد الرحمن سمير (عضو الحملة الشعبية لدعم البرادعي، عضو الائتلاف).
* محمود سامي (من شباب 6 أبريل، عضو ائتلاف شباب الثورة).
* أحمد ماهر (المنسق العام لحركة 6 أبريل، عضو الائتلاف).
* خالد السيد (العدالة والحرية، عضو ائتلاف شباب الثورة).

بالإضافة إلى:

* وائل غنيم (مدير صفحة كلنا خالد سعيد على فيسبوك).
* أسماء محفوظ (ناشطة في حركة 6 أبريل).
* عمرو سلامة (ناشط ومدون).

الاجتماع الأول شارك فيه اللواء محمود حجازي وهو رئيس جهاز التنظيم والتعبئة في الجيش المصري، وحسب أسماء محفوظ[1] فإن الاجتماع كان إيجابيا، كما كان يبدو أنه لقاء للتعارف، والتأكيد على دور الجيش في الثورة، وأنه لولا الموقف البطولي الذي قام به الجيش تجاه الثورة، كما أكد اللواء أن الجيش كان قد تلقى أوامر بإطلاق النار على المتظاهرين إلا أن قيادة الجيش رفضت الأمر تماما.

النقطة المحورية في اللقاء الأول بين الجيش وشباب الثوار كانت الاقتصاد، فقيادة المجلس العسكري التي حاولت إقناع الشباب بعدم جدوى، بل بفداحة ضرر الإضرابات الفئوية والعمالية في هذا التوقيت الحرج من تاريخ مصر، أكدت أن الاقتصاد المصري على شفا الانهيار، وأن مطالب الثورة قد تحققت كاملة، وأن بطولة الشباب المصري قد أذهلت العالم.

---

1 أسماء محفوظ، عضو بحركة 6 إبريل، مقابلة شخصية، القاهرة 11 إبريل 2011.

"لم تكن هناك أي اتفاقات أو التزامات من جانبنا في اللقاء الأول مع الجيش"، هذا هو ما أكدته أسماء محفوظ في حديثها[1] عن الاجتماع الأول بالمجلس الأعلى للقوات المسلحة.

المجلس أيضا أكد في لقائه الأول على أنه سيتم الانتهاء من صيغة التعديلات الدستورية، خلال عشرة أيام من تاريخه، التعديلات التي تم الاستفتاء عليها بعد ذلك في التاسع عشر من مارس تم تمريرها بعد موافقة ما يقرب من 77% من الذين شاركوا في التصويت على تمرير التعديلات، رغم أن ائتلاف شباب الثورة دعا للتصويت بـــ "لا" على التعديلات الدستورية.

انتهى اللقاء الأول مع المجلس الأعلى للقوات المسلحة، مع توصيات من المجلس للشباب بمحاولة التأثير على المشاركين في التظاهرات الفئوية والاعتصامات العمالية بوقف احتجاجاتهم تضامنا مع الاقتصاد المصري. وبعد أيام من اللقاء الأول الذي عقده الجيش مع الشباب، وفي مسارٍ موازٍ، قدمت القوى الوطنية التي تضم الجمعية الوطنية للتغيير بروافدها السياسية والحزبية، والبرلمان الشعبـــي، وجبهة دعم الثورة المصرية، ورقة بمطالب ومقترحات للمجلس الأعلى للقوات المسلحة تحمل رؤيتها لمستقبل مصر في المرحلة المقبلة[2].

الورقة التي قدمها الدكتور حسام عيسى والدكتور محمد البلتاجي والأستاذة شاهندة مقلد لوزارة الدفاع بتاريخ التاسع عشر

---

1 المصدر السابق

2 القوى الوطنية تسلم رسالة للمجلس الأعلى للقوات المسلحة تحمل رؤيتها لمستقبل مصر، موقع جبهة إنقاذ مصر، 19 فبراير 2011
http://saveegyptfront.org/news/latest-news/23161.html

من فبراير، كان مطلبها الأول نقل السلطة في مصر لمجلس رئاسي مدني، وتكليف حكومة تكنوقراط بإدارة شؤون البلاد، وتراوحت بقية المطالب بين حل المجالس المحلية ومحاسبة المسؤولين عن أعمال العنف والبلطجة والإفراج عن المعتقلين.

لكن الائتلاف أعلن في نفس اليوم (السبت 19 فبراير) تعليق مفاوضاته مع المجلس العسكري لحين الموافقة على اشتراك 16 عضوا من الائتلاف في التفاوض. ونقلت الشروق المصرية عن معاذ عبد الكريم أحد أعضاء الائتلاف عن الإخوان المسلمين قوله "**نرى أن هذه المفاوضات غير إيجابية، ونحرص على مشاركة منسقي الائتلاف الـ 16 في الاجتماعات**"[1]. وهو ما تحقق بالفعل في اللقاء الثاني مع ائتلاف شباب الثورة، في الثلاثاء الأول من مارس، حيث شارك في اللقاء 18 شابا وفتاة من شباب الثورة، يمثلون مختلف القوى والاتجاهات السياسية المصرية وهم: عبد الرحمن سمير، وعبد الرحمن فارس، وسالي توما، وباسم كامل، وأسماء محفوظ، ومحمد صلاح الشيخ، وإسلام لطفي، ومحمد القصاص، ومحمد عباس، وشادي الغزالي، وزياد العليمي، وناصر عبد الحميد، ومحمود سامي، وحسام مؤنس، وخالد تليمة، وباسم فتحي، وأحمد ماهر، وإسراء عبد الفتاح.[2]

وحضر الاجتماع من المجلس الأعلى للقوات المسلحة اللواء سامي دياب مساعد رئيس هيئة الأركان، واللواء محسن الفنجري،

---

1 ائتلاف شباب الثورة يعلق مفاوضاته مع الجيش ويطالب بحل جهاز أمن الدولة، الشروق، 19 فبراير 2011
http://www.shorouknews.com/ContentData.aspx?ID=392704

2 أحمد رجب، «المصري اليوم» تنشر تفاصيل اجتماع المجلس الأعلى للقوات المسلحة مع «ائتلاف الثورة»، المصري اليوم، 1 مارس 2011
http://www.almasryalyoum.com/node/335883

مساعد وزير الدفاع والمتحدث الرسمي باسم القوات المسلحة الذي قدم التحية العسكرية لشهداء التحرير أثناء تلاوته بيان القوات المسلحة، واللواء محمود حجازي رئيس جهاز التنظيم والتعبئة. في هذا الاجتماع تمت مناقشة العديد من الأمور مثل الإفراج عن المعتقلين السياسيين، ووضع البلاد الاقتصادي، وكان هناك إجماع من الشباب على مطالبة الجيش بتبني جدول زمني لتنفيذ مطالب الثوار، إلى الحد الذي جعل محمود سامي (أحد شباب الائتلاف) يقول إن شهرا واحدا يبدو مهلة كافية لتنفيذ تلك المطالب، وإن الشباب سيدعون إلى النـــزول مرة أخرى إلى ميدان التحرير لو لم يتم تنفيذ هذه المطالب خلال شهر واحد. كما أن الشباب طالبوا المجلس بتبني مقترح تشكيل مجلس رئاسي مدني لإدارة البلاد لفترة مؤقتة، في حدود السنة، تتم خلالها الانتخابات التشريعية وإقرار دستور جديد، وفي بدايتها يتم تعيين حكومة تكنوقراط أعضاؤها محايدون، وهو ما لم يرد عليه المجلس في حينه. ولم يغب عن الشباب التأكيد على مطلب هام، وهو حل جهاز أمن الدولة المصري، وتفكيك مقراته، ونقل بعض صلاحياته لجهاز أمني جديد تابع لإشراف القضاء.

الجيش حتى تلك اللحظة، لم يكن على استعداد لحل جهاز أمن الدولة، وكان كل ما يمكن تقديمه بحسب الجيش، هو تحديد صلاحيات الجهاز، ومعاقبة المسؤولين عن عمليات التعذيب التي كانت تجري في الجهاز. لكن الشباب استطاعوا بالفعل تنفيذ مطلبهم عقب الضغط الشعبـــي الكبير، والاقتحام الذي تم للعديد من مقرات أمن الدولة. واتخذ قرار الحل في الخامس عشر من مارس، عندما حل وزير الداخلية اللواء منصور العيسوي جهاز مباحث أمن الدولة، وأعلن عن تأسيس جهاز الأمن الوطني **"الذي سيختص بالحفاظ على**

الأمن الوطني ومكافحة الإرهاب وفق أحكام الدستور والقانون ومبادئ حقوق الإنسان، دون التدخل في حياة المواطنين"[1]. لكن مطلبا رئيسا كان يشكل محور أحاديث الشارع المصري في ذلك التوقيت، وهو إقالة حكومة الفريق أحمد شفيق، التي كلفها الرئيس المخلوع حسني مبارك بأداء مهام الحكومة مع بداية الثورة المصرية.

ومع ازدياد الضغط الشعبـــي في اتجاه إقالة حكومة شفيق، بدأ المجلس الأعلى للقوات المسلحة في التواصل مع الدكتور محمد البرادعي، بعد إدراك المجلس لحجم التأثير الذي يملكه الدكتور البرادعي على شباب الائتلاف والناشطين بصفة عامة[2].

واتخذ بالفعل قرار إقالة الفريق شفيق عقب لقاء جمع بين قيادة الجيش والدكتور محمد البرادعي، في ذات اليوم الذي جمع بين الشباب والمجلس الأعلى، البرادعي الذي اتصل بشباب الائتلاف للتنسيق والتشاور حول اسم رئيس الوزراء المقبل، توصل لاتفاق نهائي على طرح اسم الدكتور عصام شرف، ليكون في الثالث من مارس أول رئيس وزراء يستند إلى شرعية الثورة في مصر[3] [4].

---

1 حل مباحث أمن الدولة بمصر، الجزيرة، 15 مارس 2011
http://www.aljazeera.net/NR/exeres/FB0D8ACE-46FB-433B-AD65-4934568F83F5.htm

2 ائتلاف شباب الثورة: البرادعي نقل للمجلس العسكري أن مطلبنا هو إقالة شفيق وتعيين شرف، الدستور، 3 مارس 2011
http://dostor.org/politics/egypt/11/march/3/37376

3 المجلس العسكري يلتقي الجنزوري وموسى والبرادعي لبحث أوضاع البلاد، البديل، 1 مارس 2011
http://goo.gl/FQmsA

4 محمد شوشة، الشروق تكشف: لقاء البرادعي والجيش وراء إقالة شفيق، الشروق، 4 مارس 2011
http://www.shorouknews.com/contentdata.aspx?id=401292

وخلال الأيام التي تلت تكليف الدكتور عصام شرف بتشكيل الحكومة، التقى المجلس العسكري العديد من قيادات القوى الوطنية والسياسية، كان من بينهم المرشد العام للإخوان المسلمين الدكتور محمد بديع، الذي شارك مع الجماعة لأول مرة في حوار على هذا المستوى، منذ ما يقرب من أربعة عقود، حيث كان آخر تواصل بين رأس الجماعة ورأس السلطة في مصر، هو ما تم بين المرشد العام الثالث للجماعة عمر التلمساني والرئيس الراحل أنور السادات، في سبعينيات القرن الماضي.[1]

وعقب حل جهاز أمن الدولة، في الخامس عشر من مارس، كان الشعب المصري على موعد مع المعركة السياسية الأعنف حتى الآن، معركةُ الاستفتاء على التعديلات الدستورية. فالشعب المصري الذي وثق في الجيش حاميا للثورة، اختار وبأغلبية ساحقة، الخيار الذي أيده الجيش، وبعض القوى مثل الإخوان المسلمين وبعض الأشخاص من النخبة المثقفة في مصر أمثال المستشار طارق البشري الذي كان على رأس اللجنة المكلفة بتعديل الدستور والأستاذ فهمي هويدي والكثيرين من الكتاب. قال الشعب نعم للتعديلات الدستورية.

وكانت استحقاقات المرحلة التالية تتطلب من الجيش المصري الجلوس مرة أخرى والاستماع إلى شباب الثورة لمعرفة رؤيتهم لمصر بعد الاستفتاء، وكان اللقاء يوم 22 مارس، وتمت فيه مناقشة ثلاث

---

1 المجلس العسكري يلتقي القوى السياسية.. وخلاف على أسبقية الانتخابات البرلمانية والرئاسية، الشرق الأوسط، 7 مارس 2011
http://www.aawsat.com/details.asp?section=4&issueno=11787&article=611310

نقاط رئيسة بحسب عبد الرحمن سمير[1]:

- إجراء الانتخابات البرلمانية قبل الرئاسية مع إلغاء مجلس الشعب وتجرى الانتخابات بالقائمة النسبية المختلطة وإلغاء كوتة المرأة، مع اقتراح إجراء الانتخابات البرلمانية في سبتمبر والرئاسية في ديسمبر المقبل.
- تطهير كل المؤسسات الحكومية.
- الإفراج عن المعتقلين وإصلاح المؤسسة الأمنية وتقديم مشروع قانون ضد الفساد السياسي.

ورغم أن المجلس الأعلى للقوات المسلحة لم يدع شباب الثورة للقاء آخر، فإنه عقب الإعلان الدستوري، الذي أصدره الجيش بعد إقرار التعديلات الدستورية، اعتبر الشباب في بيان لهم في الأول من أبريل أن الإعلان الدستوري "لا يؤدي إلى دولة ديمقراطية"[2].

خاتمة

ما بعد الثورة.. حوار الأنداد

إن الحوار الوطني الذي حدث أثناء وبعد الثورة المصرية بين الثوار والسلطة في مصر، أثبت بما لا يدع مجالا للشك أن طرف التفاوض الأول (الثوار) ممثلا للشعب المصري، قد تخلى عن قناعته

---

1 المجلس العسكري يلتقي النشطاء لمناقشة مرحلة ما بعد الاستفتاء، اليوم السابع، 22 مارس 2011
http://www.youm7.com/News.asp?NewsID=375127&

2 ائتلاف شباب الثورة: الإعلان الدستوري لا يؤسس لدولة ديمقراطية.. والحوار الوطني يفتقر إلى «النزاهة»، المصري اليوم، 1 أبريل 2011
http://www.almasry-alyoum.com/article2.aspx?ArticleID=292255&IssueID=2092

بأنه يخضع لسلطة أبوية فوقية، وأن السلطة المصرية ممثلة في النظام السابق، وفي الجيش على وجه الخصوص، قد تعاملت مع الشعب المصري بندية شديدة، وبلا أي حس بالتعالي.

هذه الندية ظهرت أثناء مراحل متعددة من التفاوض، وظهرت بوضوح شديد في الأيام الأخيرة للحوار الوطني، حيث علق ائتلاف شباب الثورة الحوار مع المجلس الأعلى للقوات المسلحة، عقب اقتحام الجيش لميدان التحرير فجر السبت 9 أبريل. كما أن المؤشرات التي تثبت قوة التفاوض، واستمرار الدعوة للتظاهرات المليونية، هو ما نتج عقب أربعة أيام من "جمعة المحاكمة والتطهير"، حيث أصدر النائب العام قرارا بحبس الرئيس السابق ونجليه 15 يوما على ذمة التحقيق، وهو ما كان ليحدث لولا الصمود الأسطوري للشعب المصري في الميدان، ولولا الندية في التفاوض بين طرفي الحوار.

إن مستقبل الحوار يبدو واضحا بشكل ما، في ظل الثبات على المطالب من جانب الثوار، مع تغير الوضع بشكل دراماتيكي لصالحهم على مدار الأيام السابقة. إن الإشكالية الآن تكمن في الحيلولة دون تصلب رأي المجلس العسكري في مصر، وفي إبداء قدر كاف من المرونة من جانب الثوار يسمح لهم بتحقيق مطالبهم بلا كسر لهيبة المؤسسة التي تكاد تكون الملاذ الأخير لمصر في هذه اللحظة.

الفصل الخامس

المستشفى الميداني..
أطباء على خط النار

د. نغم نبيل عمر(*)

كانت صبيحة اليوم الخامس والعشرين من يناير من العام الحادي عشر بعد الألفين صبيحة يوم غير عادي في التاريخ، فهو اليوم الذي بدأت فيه الثورة التي غيرت وجه العالم والإنسانية والتاريخ إلى الأبد، هكذا يقول الإعلام عن هذا اليوم، أما أنا فلي رؤيتي الخاصة لهذا اليوم وما بعده، ذلك لأني شاء قدري أن أكون في قلب الميدان النابض، في المكان الوحيد الذي ترى فيه كل شيء ولا ترى شيئا، أرى القتلى والجرحى فأعرف تطور الأحداث، بينما أنا لست في قلبها، ذلك لأن شهود العيان ماثلون أمامي، فهذا مصاب بجرح قطعي إذن فالبلطجية يقذفون بالحجارة، وهذا مصاب برصاصة إذن فالقناصة ينشطون، وهذا مغمى عليه فلا بد أن الأمن المركزي صعد هجماته بالقنابل المسيلة للدموع، وهكذا أنا في قلب الميدان أنا بين القتلى والجرحى.

(*) أستاذ بكلية الطب، جامعة أسيوط، كاتبة وناشطة مجتمع، ومسؤولة الإعاشة والدعم النفسي في المستشفى الميداني.

الثلاثاء 25 يناير

بدأت مشاهداتي في يوم الخامس والعشرين من يناير وتحديدا الحادية عشرة صباحا، حين انهالت قنابل الغاز المسيل للدموع علينا كالمطر في جنبات ميدان التحرير، لتفريق جموع المتظاهرين التي كونتها عدد من المظاهرات الألفية المتفرقة، خرجت من كل نواحي المحروسة حتى ضجت بها شوارعها وأزقتها، فمن شبرا والمطرية والجيزة وإمبابة ومن مصر الجديدة ومدينة نصر ومن رمسيس وباب اللوق، الكل تجمع كالسيل الهادر ليصب في بحر ميدان التحرير. واستمر التدفق طوال النهار وحتى الساعات الأولى من اليوم التالي كشلال مياه تجمعت لثلاثين عاما و لم تستطع كسر السد، وها قد كسرته.

كان العدد كبيرا لدرجة صعقت الأعداد القليلة من قوات الأمن المركزي المترصدة له، فرغم المعلومات المؤكدة لدى الأمن عن احتجاجات هذا اليوم فإن عقيدهم الأمنية طمأنتهم، فالإهانة والاستهانة كانت عقيدة الأمن في التعامل مع شعب طالما وصفته "بالجبان"، و"المستسلم"، وبعد ذهول شديد من القوات -لم يدم طويلا- فقد قطعه صياح القيادات الموجودة بالمكان في الضباط والجنود، بدأت قوات الأمن -التي وقعت بين مطرقة القيادات وسندان المحتجين- في الانتقام من شعب خيب ظنها بشدة و لم يكن جبانا كما ظنوه دائما، فانهالت قنابل الغاز في كل الاتجاهات لمحاولة وقف الهدير الثائر، لكن أنى لسيل أن يعود.

صار الموقف يتعقد ويزداد سخونة بين محتجين يتزايدون في الوقت الذي تنتهي فيه المظاهرات عادة، فبعد الثالثة عصرا خرج العمال والموظفون وسمع بالمظاهرات الطلاب والفلاحون وتعاطف

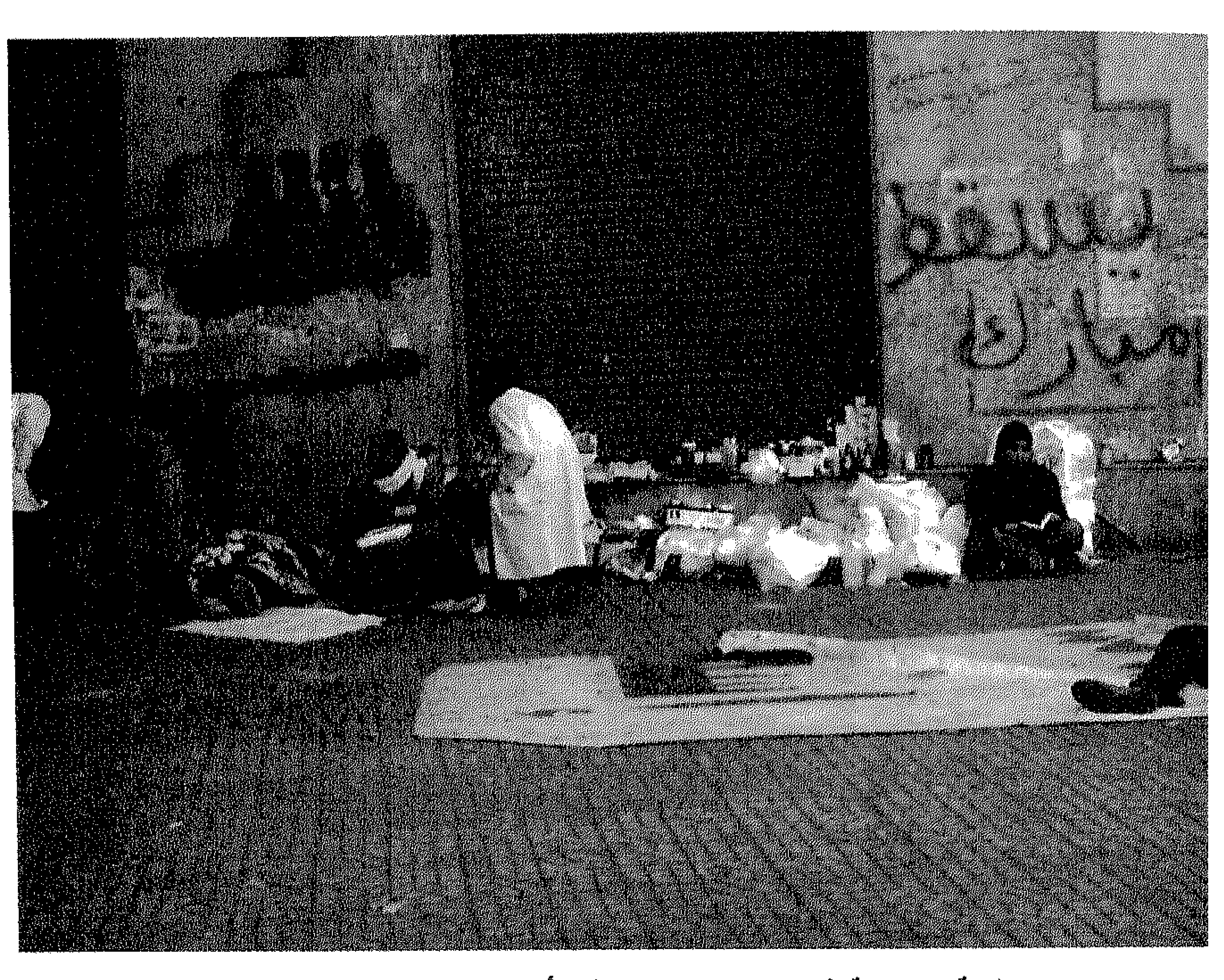
المارة، فلكل شكواه، بينما القيادات والقوات يزداد ذهولهم، يصرخون طلبا للدعم، يأتيهم الدعم فيطلبون آخر وثالثا ورابعا، أعداد القنابل تتضاعف، و لم ينفض الجمع، إذن فلتتسع دائرة العنف، فدخلت مدافع الماء الساخن، ثم الرصاص المطاطي، وأخيرا الرصاص الحي.

على الجانب الأخر هتاف يزداد بازدياد العنف ويتنوع بتنوع الأسلحة، ومع كل قطرة دم تتملك المحتجين جرأة، فقد كسر الحاجز، فظهرت خطط دفاعية ارتجالية بين المحتجين، فالقنابل المسيلة ترد على قوات الأمن بسرعة من شباب مكمم صار جاهزا لهذا العمل، والماء الساخن والرصاص المطاطي يحتمي منه بأي قطع خشبية غليظة أو صاج حديدي، والرصاص الحي في الأغلب يكون في الهواء، وإن لم يكن ففيه حياة في دار أخرى ليس فيها مبارك ونظامه.

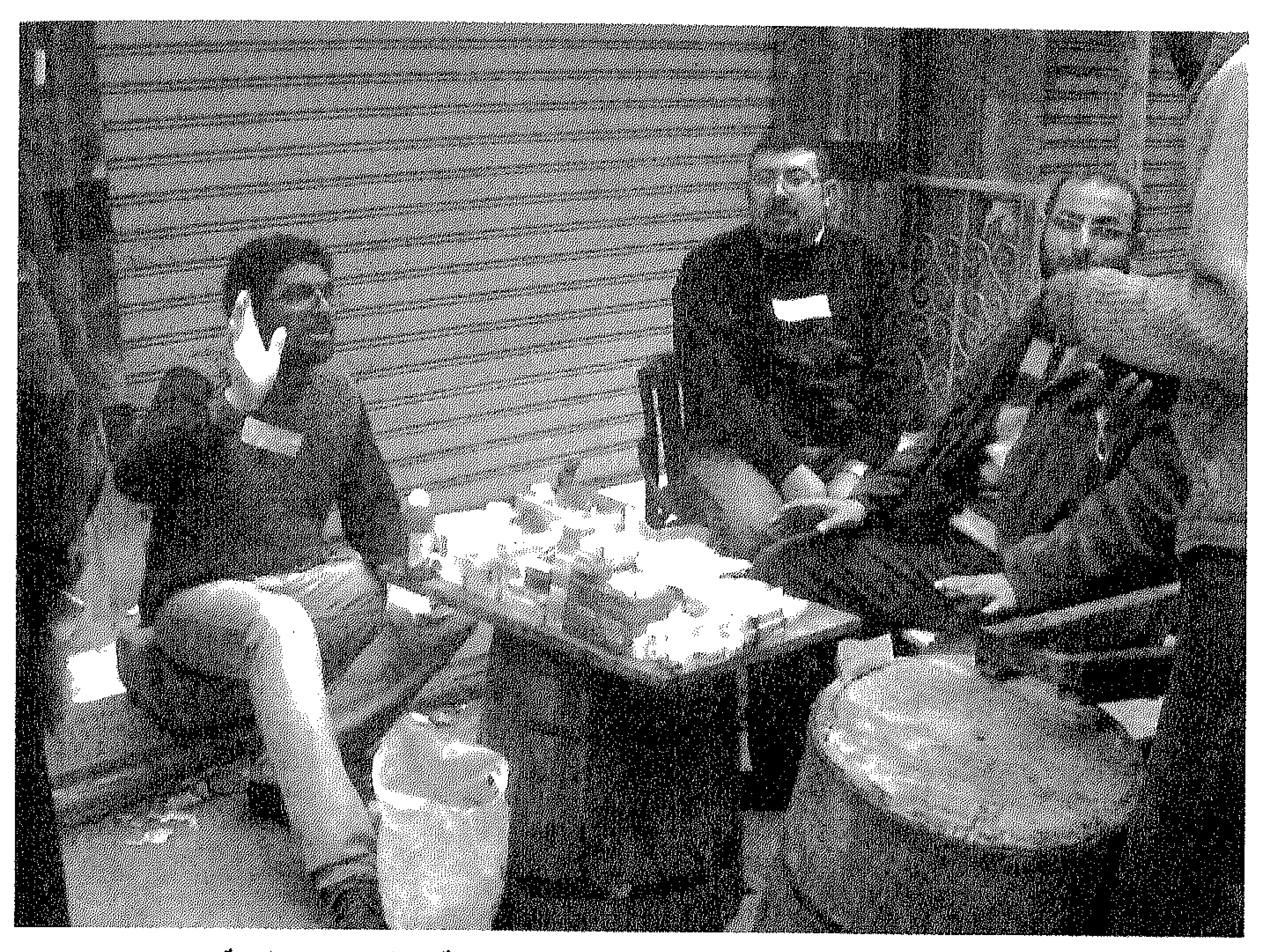
لقد بات الأمر معركة حقيقية بين إرادتين، وتزايدت أعداد المصابين بحالات الاختناق جراء القنابل والمجروحين من الرصاص المطاطي والحجارة الكبيرة التي كانت يلقيها الجنود من العربات المصفحة مع قطع الحديد على المتظاهرين، فهرع المصابون بأنفسهم أو محمولين إلى عربات الإسعاف التي تواجدت بكثافة في أرجاء المكان، ليفاجؤوا بأن داخلها ضباطا من أمن دولة وأنهم معتقلون، ومن كان منهم أوفر حظا وذهب بنفسه إلى مستشفى القصر العيني القريبة، وجد نفسه مكبلا بالحديد في جنبات السرير الأبيض معتقلا بواسطة أمن الدولة، قبل أن يجري أي كشف طبـــي عليهم، وقد كان هذا الوضع في جميع المستشفيات العامة، كالهلال وأبو الريش وأحمد ماهر وشبرا العام وحتى الخاص مثل السلام وفلسطين، تنامت معلومات ما يحدث إلى علم المتظاهرين، فكانت خطتهم الارتجالية البسيطة هي علاج المصابين في الميدان، وبذلك ولدت فكرة المستشفى الميداني.

بدأت بشكل عفوي بأن تجمع بعض الأطباء للتعامل مع الحالات التي كانت سقطت في أرض الميدان بسبب الاختناق من الغاز أو الجروح المختلفة، كان التعامل بسيطا وبأدوات بدائية، مثل البصل والخل والمشروبات الغازية التي كانت تلقى إليهم من البيوت المجاورة أو يعطيها لهم المارة في الشارع، وما لبثت أن تبلورت الفكرة، فانطلقت الدعوى على الفيسبوك ورسائل المحمول لتزويد الثوار بهذه الأدوات البسيطة فانهمرت عليهم الأدوية والأدوات الطبية من كل مكان طوال اليوم. كانت بداية المستشفى الميداني بوحدتين، الأولى في قلب الميدان، ومع ازدياد القنابل أنشئت الوحدة الثانية على الرصيف بين مطعم كنتاكي وشركة الطيران القطرية، فصار الرصيف المرتفع وكأنه السرير، بينما السلالم كانت وكأنها مقعد للطبيب.. يرتكز عليها بركبتيه ليكون المريض في وضع محاذ له فتسهل عملية إسعافه.

ومع رحيل نهار اليوم الأول، ظهرت الحاجة لوجود وحدة طبية أخرى، فقد جن جنون الأمن المركزي، وزادت هجماته وحشية ورغبة في إصابة أكبر عدد من المتظاهرين، عسى أن يكون من يصاب عبرة لغيره، فزادت الجروح وتنوعت بين بسيطة وقاتلة، وسال الدم بشكل غزير على أرض الميدان، وزاد الإصرار، وكانت أولى الحالات ناشطة اسمها شيماء حامد في الثانية والعشرين من العمر، أصيبت بقطع في الجبهة استدعى تقطيبه بثماني غرز، وبعد تقطيب الجروح واستراحة قصيرة تناولت فيها قطعة حلوى وزجاجة عصير، عادت بعدها إلى الميدان. نجحت الفكرة، وباتت هذه الإسعافات البسيطة تنقذ حياة وتؤدي رسالة لأجلها يشعر الطبيب أنه خلق لها، فتحمس الجميع وبدؤوا في العمل الفعلي.



وحدة طبية خارجية في ميدان التحرير في أول يوم إنشائها، الوحدة رقم 1



الوحدة الطبية رقم 2 بين مطعم كنتاكي وشركة الطيران القطرية

في البداية طلب الدكتور معاذ عبد الكريم-صيدلي، أحد أعضاء ائتلاف شباب الثورة، وكان في النقطة الأولى مدد من نقابة الأطباء القريبة من الميدان، ولبت النقابة النداء، فأرسلت إمدادات أولية من الشاش وخيوط الحرير وإبر الخياطة والمقصات ومستحضرات التطهير المتاحة، كانت الوحدات الطبية كخلية نحل، فالإصابات كانت تزداد طيلة اليوم، ومع الليل نحا الأمر نحوا خطيرا، فقد بدأت قوات الأمن في استعمال السلاح بكثافة، فلا بد أن يخلو الميدان مهما كان الثمن، وكان الثمن إصابات مباشرة بالرصاص المطاطي والحي وأخرى بخراطيش ورشّ من عيار 28مم.

كل هذا والشباب صامد في الميدان في فصل جديد من صراع الإرادات دفع ثمنه القتلى والجرحى، والأطباء المعالجون في المستشفى الميداني، فبدأ الأطباء يتصلون بذويهم وأصدقائهم الأطباء تليفونيا ويطالبونهم بالنـــزول لمساعدتهم وجلب ما يمكن من أدوات طبية، فقد كانت الإصابات بالغة الصعوبة، منها رشق بالرصاص المطاطي والرش في أماكن متفرقة من البدن، وكانوا يضطرون لاستخراجه بدون تخدير في هذه الوحدة البدائية، مما سبب الكثير من الألم لهم وللمريض معا، وكانت المعاناة الكبرى تتمثل في تحديد انتشار الطلقات في البدن في ضوء غياب أجهزة الأشعة التشخيصية. فكان الابتكار الذي هو دائما رديف الحاجة، فقد ابتكر الأطباء فرعا جديد في طب الطوارئ أسموه "طب الشوارع"، في فكاهة مصرية خالصة كعادة المصريين في أوقات المحن، فقد كان الطبيب يضغط على الطلقة بإصبعه من أسفل ثم يسحبها بالملقاط أو إصبعه الآخر في بعض الأحيان، وقد تم في هذه الليلة العصيبة تقطيب جروح 132 حالة واستخراج 82 رصاصة.

الأربعاء 26 يناير

وفي اليوم الثاني، وهو الأربعاء الموافق السادس والعشرين من يناير، بدا واضحا أن الثورة بدأت تأخذ منحاها الجديد، فقد أضيف لأسباب الاحتجاج سبب آخر هو الثأر مما حدث من همجية الأمن في اليوم الماضي، فقد تجمع المحتجون بأعداد أكبر وبدأت حرب شوارع غير منظمة، فقد تظاهرت القاهرة كلها في جميع شوارعها، وكان رد الشرطة أعنف، فقتلت القنابل المسيلة والحديد والحجارة التي يلقوها من فوق الكباري في ذلك اليوم شخصين من أهل بولاق، رغم أنهما لم يكونا طرفا في الاحتجاجات، فأغلق أهالي بولاق مداخل المدينة وأشعلوا النيران في إطارات السيارات، وبدؤوا في إلقاء الطوب على الشرطة. وتحت ضغط عشوائية الأحداث طور الأطباء أداءهم، فكانت فكرة الوحدات المتنقلة، فكل طبيب يحمل أدواته ومبضعه ويجري مع المتظاهرين الذين كانت تحركاتهم بين كر وفر في الشوارع وفوق الكباري حتى نهاية اليوم. وكانت الإصابات في هذا اليوم عديدة ومثل اليوم السابق ضيقاً في التنفس أو جروحاً قطعية من الحجارة وأحيانا كسورا بسيطة.

الخميس 27 يناير

في اليوم الثالث وهو الخميس السابع والعشرون من يناير أوقفت الحكومة رسائل الهواتف النقالة، وحجبت موقع التواصل الاجتماعي الفيسبوك، في محاولة لوقف تدهور الموقف، فكان رد المتظاهرين أن نـــزلوا للشوارع بكثافة أكبر، فزادت حدة فرق الأمن أكثر وأكثر، فانتهجت نهجا جديدا وهو تكسير عظام من يقع تحت يدها، وتكثيف الغازات المسيلة، واستعمال قنابل المولوتوف ورصاص

القناصة لمن يقترب من وزارة الداخلية، ومع زيادة الإصابات توالت نداءاتنا للاستغاثة، فتوالت علينا الإمدادات من العصائر والمياه والبصل والخل والأدوية المختلفة، وتماشيا مع الوضع الجديد تكونت فرق تحمل المصابين من الميدان والشوارع الجانبية التي تحولت إلى حرب شوارع مفتوحة بكل ما تحمله الكلمة من معنى، فقد كان طوب المتظاهرين في مواجهة الحجارة والحديد والعصي الغليظة والكهربائية، مما تطلب إضافة حل بديل لعملية "التجبيس"، فلا وقت للتجبير، وهنا تفتقت أذهان الأطباء عن استعمال الكراتين الفارغة في عمل الجبيرة، وقد تم ذلك فعلا في شارع مجلس الشعب.

زادت حالات الكسور بشدة من أول هذا اليوم، ومع خوف المصابين من الذهاب للمستشفيات تفاقمت أحوالهم، مما استدعى إجراء عمليات لأكثرهم، بل تطور الأمر للأسف الشديد لأخطر من ذلك بوفاة بعضهم جراء التسمم بالغرغرينا من تلوث الكسر والتهاب العظم. وظل الأطباء طيلة هذا اليوم مضطرين للانتشار في الشوارع الجانبية وشارع عبد المنعم رياض الذي شهد وجود رجال أمن أعلى كوبري 15 مايو يلقون القنابل المسيلة للدموع، التي سممت في هذا اليوم أعدادا كبيرة، مما حدا بالأطباء أن يتكهنوا بأن الغاز مخلوط بغازات أخرى سامة كالتي استخدمت في حرب غزة، مع توارد الأنباء عن ورود طائرتين إسرائيليتين محملتين بأسلحة مكافحة الشغب.

جمعة الغضب 28 يناير

وفي اليوم الرابع بدأ مفهوم الثورة يظهر على أرض الواقع، فقد كانت جمعة الغضب في الثامن والعشرين من يناير اليوم الفصل بين

النظام والثوار، لذا استخدم كلا الطرفين مهارته ليحسم المعركة لصالحه، وكان تكتيك الشرطة يقضي بانسحابها من الشوارع ونـــزول أفرادها في ثياب مدنية بين الناس يقتلون بالرصاص الحي وهم متخفون، فوقع من القتلى والجرحى ما فاق عدد حرب غزة في ثلاثة أسابيع، وزاد الأمر سوءا بوجود القناصة فوق العمارات المطلة على قلب الميدان، وفوق هيلتون رمسيس، والجامعة الأمريكية، ومجمع التحرير، يقنصون الشباب بأسلحتهم المتطورة بطلقة واحدة في مقتل، بينما وقف بعض التابعين للأمن يلقون من فوق الكباري قنابل المولوتوف الحارقة، مما زاد الوضع سوءا فقد كانت الإصابات في العينين والرقبة مباشرة، غير الحرق والدهس بسيارات الجيش والشرطة.

زاد الأمر تعقيدا أن قامت مجموعة من كتائب النظام الأمنية باستهداف الأطباء على وجه الخصوص، بغرض ترويعهم وحملهم على التوقف عن أداء عملهم، فبتنا نرى أطباء مصابين يعالجون الجرحى في مشهد تدمى له القلوب، وخرق لكل المواثيق والعهود الدولية، فالطبيب عنصر مدني لا يجوز التعرض له لا بالقصف ولا الاعتقال أثناء الحروب.

ومع انقطاع كل الهواتف النقالة تماما زادت المهمة مشقة على الأطباء بل باتت شبه مستحيلة، فقد توقفت الإمدادات وعجزنا عن التواصل مع ذوي المصابين لينقلوهم بسياراتهم الخاصة، فضلا عن قطع التواصل مع أي استشاري أو مستشفى يمكن أن يقدم العون أو الإغاثة لحالة تحتضر، وهو ما ضاعف في الواقع من أعداد الجرحى والمصابين بشكل خطير، وهو ما يعد من جرائم الحرب في القانون الدولي، فقد قصد إعاقتنا نحن الأطباء عن إنقاذ الجرحى.

كان الرصاص الحي شعار هذا اليوم الذي كان يطلق من أسلحة القنص، والتي كانت تطلق شعاع ليزر أخضر ثم تأتي الرصاصة فورا، وإلى جانب ذلك سجلت العديد من الإصابات بالخرطوش والرش بالإضافة إلى إصابات بطلق رشاشات آلية. وكان أخطر ما في هذه العملية "القنصية" أنها كانت تقتنص أعين الثوار مباشرة، ففي هذا اليوم وحده فقد 48 شخصا أعينهم، وباتت الكسور المتفرقة أمرا عاديا بين المتظاهرين.

لم يقتصر الأمر على القناصة الذين روعوا المتظاهرين في كل أنحاء ميدان التحرير وحول وزارة الداخلية ومجلس الشعب، بل كانت العصا الكهربية التي تشل الحركة، وأتباعها بالهراوات الغليظة أو الركل بالأحذية (البيادات العسكرية) التي كانت سببا في العديد من الكسور المضاعفة خاصة إذا اجتمعت مجموعة من الجنود على فرد واحد، فتزايدت حالات الكسور حتى الليل حيث بلغت حوالي أربعين حالة، عدا الذين لم يردوا على أفرع المستشفى يومها.

وفي ذلك اليوم أنشئت ثلاث وحدات على خط النار: في المسجد الصغير بين شارع الجامعة الأمريكية وشارع باب اللوق، وفي شارع عبد المنعم رياض، وشارع شامبليون في مدخل إحدى العمارات.

ومن إحدى مشاهداتي لهذا اليوم أنه بينما تخفى رجال الشرطة في الشوارع الجانبية، خاصة محمد محمود (شارع الجامعة الأمريكية) وطلعت حرب، وكانوا بزي مدني أصيب عدد منهم وانكشف أمرهم، فاعتقلهم الثوار وأوسعوهم ضربا ثم أرسلوا بهم للمستشفى الميداني، وقد كان منهم ضابط أمن دولة ضبط ومعه الكارنيه الخاص به، وكثير من مساعدي الشرطة ومنتسبـــي الحزب الوطني.



الإصابة لم تمنعه من العودة إلى الميدان وتحدى بها البلطجية رغم عجزه
(أحد مصابي يوم 28 يناير)

لقد سالت دماء كثيرة في هذا اليوم العصيب، وكانت في الشوارع وعلى حوائط المحلات، حتى بات اللون الأبيض غريبا في ميدان التحرير بعدما سكنه الأحمر بكثافة. أما خارج الميدان خصوصا على الكباري الموصلة إليه فقد كان الضرب بالرصاص الحي، على كوبري قصر النيل وأكتوبر و15 مايو، حتى قتل تحته وفوقه أعداد غفيرة ممن كانوا في الصفوف الأولى لشق الطريق إلى ميدان التحرير، وكان على الأطباء المغامرة بأنفسهم في الوحدات المتحركة التي كونوها في اليومين السابقين لحمل ما يستطيعون من جرحى وقتلى، فإن التوقف للعلاج كان انتحارا يقينيا في تلك الأماكن.

لقد عاش كل طبيب قصصا أليمة ستحيا في فؤاده طوال عمره، وكانت أكثر القصص إيلاما لي تلك التي أتى فيها شاب بأخيه وقد ضرب بالرصاص، فوقف بجواره يبكي بعدما حمله إلى المستشفى بالمسجد وهو يظن أنه مصاب فلما علم باستشهاده جلس يضحك ويقول شهيد؟ فعلا؟ أخي شهيد؟ ثم انخرط في البكاء عندما طلب منه الأطباء إبلاغ أهله ليستلموه، وهو لا يدري كيف يخبر أهله ولا كيف يتركه؟ فكل ذلك سيعوقه بينما هو يريد العودة للميدان ليثأر له.

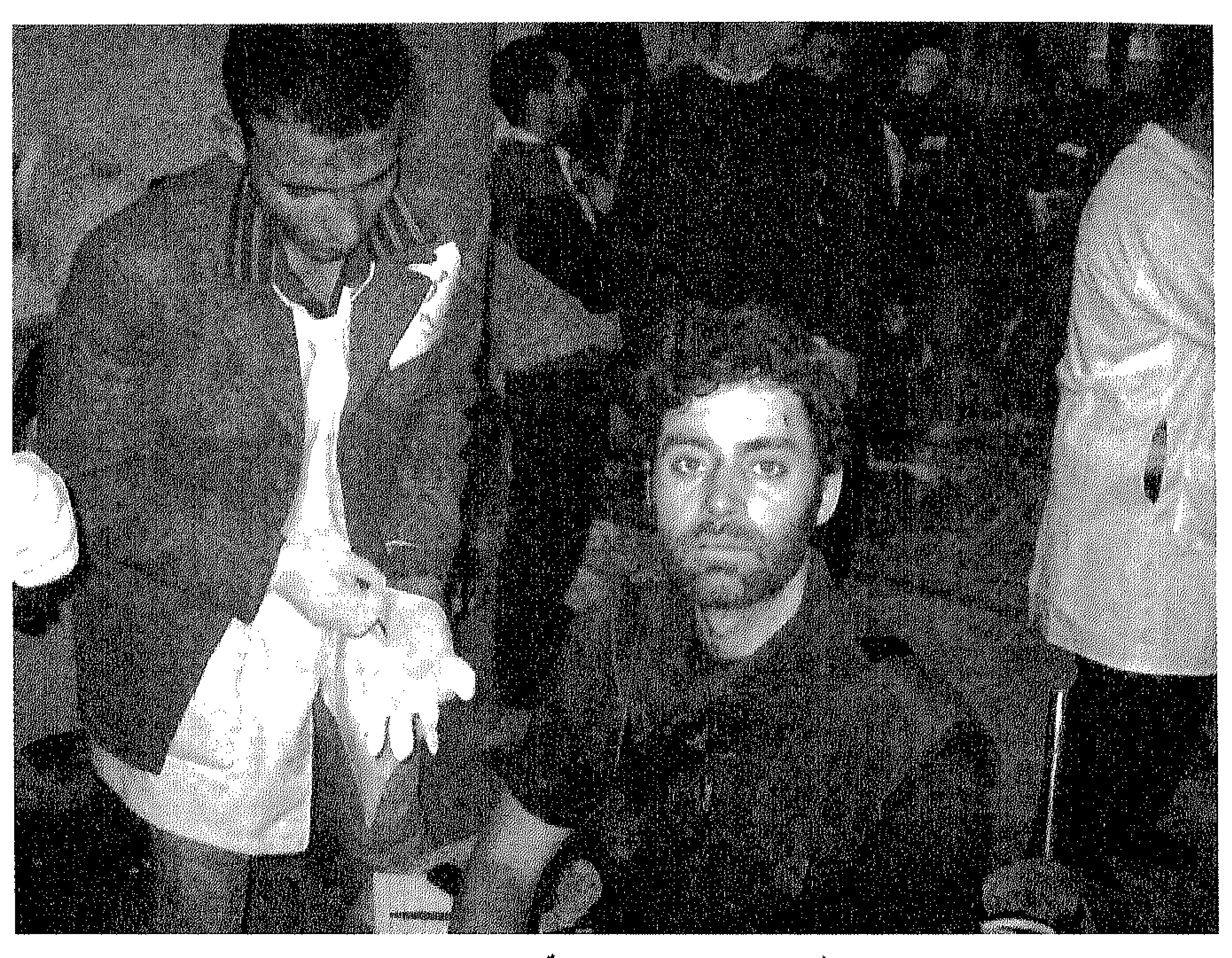
وقصة ذلك الشهيد الذي فاضت روحه لبارئها علي يد صديقي الطبيب محمد الديب الطالب بنهائي طب جامعة مصر، بعدما حمله ليجري به ظنا أنه مصاب، فلما رفعه فوجئ بالمخ ينـــزلق خارجا من الجمجمة علي يد محمد الذي حاول إعادة المخ داخل الجمجمة .. لكن بلا جدوى.

ومن أشهر الشهداء مصطفى الصاوي حافظ القرآن الذي سأل شيخه صفوت حجازي لو أني مت فهل أنا في سبيل الله؟ فلما أجابه

بنعم انطلق فلما سأله إلى أين؟ قال إلى الشهادة ثم التقاه بعد ساعتين طريحا في الميدان فجلس بجواره يبكي ويقول "تلميذي". وقد رفض الأطباء منذ ذلك اليوم تبديل أرديتهم البيضاء التي استشهد عليها جرحاهم وبات منظرهم في الميدان معروفا، فهذا البالطو الملطخ بالدم إنما هو دم شهيد. كما احتفظوا بملابس الشهداء الذين استشهدوا بين أيديهم وصنعوا منها معرضا يذكر الناس بما حدث لهم فإن نسيه الزمان فإنهم أبدا لن ينسوه.

شهد هذا اليوم أيضا استهداف النظام السابق للصحفيين، لقد كانوا من أشد الناس استهدافا، وأصيب منهم كثيرون، رغم ارتدائهم سترات الإعلام، فلم يكن أي من الناس في هذا اليوم خارج نطاق الاستهداف، حتى إن مصور إحدى الوكالات الأجنبية ورد المستشفى الميداني وبه عشرون طلقة بين مطاطية وحية. ومع الحشد العظيم الذي فاق المليون كان الهرج والمرج عظيما والقتل أعظم.

أما عن قصة المقر الرئيسي بالمسجد -المسجد الذي ذكرناه سابقا ويقع بين شارعي الجامعة الأمريكية وباب اللوق- فعندما اشتد القنص غاص الناس في الدماء، فكانوا يحتمون بمسجد في شارع صغير خلف الميدان واسمه (مسجد عباد الرحمن) حتى امتلأ بالجرحى، فصرخ إمام المسجد في الميكروفون بعد صلاة العصر طالبا من كل الأطباء إغاثة الجرحى، فهذا فرض أهم على الأطباء في هذا الوقت، وكانت هذه النصيحة هي بمنـــزلة قرع طبول المهنة للأطباء، فهرعوا من أنحاء الميدان إلى المسجد الذي هو عبارة عن ساحة مسقوفة بين عمارتين، وعلى جانبـــي الساحة مصفوفة من المحلات التي أغلقت أبوابها بالطبع، فتحول في هذه الليلة إلى مستشفى بمجموعة من الأسرة.



صحفي من قناة الجزيرة الإنجليزية استهدف يوم 28 يناير
يعالج بالمستشفى الميداني

استقبل هذا الجحر الصغير في ذلك اليوم ما يزيد علي 500 جريح، منهم من حُوِّل إلى مستشفيات وتوفي في الطريق، وكان هؤلاء حوالي عشر حالات، ومنهم من مات في المستشفى أمام ناظري الأطباء وهم خمس حالات. وكانت المشكلة الرئيسة في المكان أنه غير آمن، فالمنفذان الوحيدان من ناحية شارع باب اللوق تتمركز فيهما عربات الجيش، ومن ناحية شارع محمد محمود يتمركز القناصة فوق الجامعة الأمريكية فيصبح دخول الناس إلى المكان من هذين المنفذين خطيرا، وتعامل الأطباء مع الأمر فذهبوا إلى المتظاهرين وطلبوا منهم حماية المستشفى، فتكون فريق من اللجان الشعبية من سكان المنطقة في مجموعتين من عشرين فردا للحراسة الداخلية، ومثلهم للحراسة الخارجية ثم طوق أمني من الشباب يحمي كل هؤلاء.

لم يكن للمكان أبواب ولا نوافذ ولا حجرات، ولم يكن هناك غير دورة مياه وحيدة بجوارها مكان للوضوء مخصص للرجال ولم يكن هناك مكان للنساء، كما مثل مبيت النساء وحمايتهن مشكلة عظيمة، فلا إمكانيات ولا مأوى. مرة أخرى تتفتق أذهان الأشخاص البسطاء عن أفكار عبقرية، فتم تقسيم المسجد عن طريق عمل سواتر من الحصر بين الأعمدة، لينقسم المكان لغرف، وكان المرضى يفترشون الأغطية أسرة، أما الأطباء فقد كان النوم لهم بالملابس الثقيلة دون غطاء، وأقفل مكان خارج المسجد بالبطاطين لنوم الطبيبات.. ومن كان ينام في هذه الأجواء؟

مع كثرة القتلى والجرحى في يوم 28 يناير وانسحاب الشرطة ونـــزول الجيش، قرر الثوار الاعتصام، وكانت نقلة نوعية في الثورة،

وكانت أعداد المعتصمين مهولة، والجو قارص البرد، والجراح كثيرة تحتاج رعاية أسرية ومتابعة وتمريضا وإقامة وإعاشة وتعقيم أدوات، وتوفير آلات وأطباء وحماية، خصوصا وقد بدأ من يوم السبت حملات البلطجية في التصاعد بعد خطاب الرئيس الذي طال انتظاره، ليخرج ويعلن عن تغيير الحكومة، لكن الدماء التي سالت كانت رهيبة لم تقنع الثوار سوى بالاعتصام لإقالة الرئيس نفسه، وهنا برز دور نقابة الأطباء، كما برز دور اتحاد الأطباء العرب بعدما سبقهم الأطباء أنفسهم، فقدموا معونات طبية متنوعة، أدوية وبطاطين وأجهزة طبية خفيفة، كما كان كل طبيب يحضر معه من عدته ما أمكن.

ليلة الأربعاء الدامي وبعد خطاب الرئيس المخلوع، أصاب الإحباط كثيرا من المتواجدين في الميدان، بل غادر الكثير الميدان بالفعل إما نتيجة التأثر بخطاب الرئيس السابق، وإما نتيجة للإرهاق والتعب الشديدين اللذين حلا على الناس، وبعد الخطاب مباشرة وعند الساعة الثانية عشرة مساء تقريبا فوجئ الثوار في ميدان التحرير ببلطجية وأعوان النظام يجوبون الشوارع المحيطة بالميدان، وهم يهتفون للرئيس السابق، ويتحرشون بالمعتصمين، وكنا لا ندري أن هذه إرهاصات لأكثر الأيام دموية.

2 فبراير.. يوم الأربعاء الدامي

بعد يومين من الاستقرار النسبـــي في معالجة المرضى، خرج البلطجية بالآلاف وهاجموا الثوار بالأسلحة والجمال والخيول المسرعة حتى قتل في هذا اليوم خمسون شهيدا، وتحركت 65 سيارة إسعاف محملة بالجرحى، وكانت مذبحة جديدة كيوم 28، بل أشد، وبات

الثوار من بعد هذا اليوم محاصرين ممنوعا عنهم الغطاء والأدوية وصودرت البطاطين والأغذية واعتقل كل من يحضرها لهم، حتى باتت الناس تكتفي بالمخبوزات الجافة من الدقيق، ولا تشرب المياه لندرة الحمامات فضلا عن نومها في العراء، حتى بات الناس في حكم الهلكى.

فوق كوبري 16 مايو وقف بعض البلطجية ليلقوا قنابل المولوتوف الحارقة على من هم بالأسفل، مما أصاب عددا كبيرا بحروق مختلفة الدرجات، وحول أكثرها لمستشفيات من حدتها، كما تكرر هذا الأمر من فوق أسطح المنازل في الميدان ناحية شارع طلعت حرب الذي كانت الجحافل تأتي منه ومن شارع عبد المنعم رياض، وكانت الإصابات بالغة، فعلى الفور أنشئت ثلاث وحدات هناك، عند المسلة بجوار المتحف، وتحت الكوبري نفسه، وفي الرصيف المقابل وأطلقوا عليها الثورة 2.

وكانت الإصابات خطرة عميقة وغائرة وقطعية لوجود أسلحة بيضاء، وتركزت أغلب الإصابات في منطقة الرقبة والرأس. بالإضافة إلى ذلك كانت لإصابات الطلق الناري من مسافات قريبة أثر كبير وكانت سببا في الوفاة المباشرة على الأرض، وفاقت أعداد الوفيات في الميدان سابقتها، لأنها في السابق كانت تتوفى في المستشفيات، أما هنا فالوفاة على الأرض مباشرة.. وباتت ابتسامة الشهداء شيئا مرويا في ليالي الاعتصام كمرويات السيرة الشعبية.



صورة من وحدة المستشفى الميداني على خط النار بشارع عبد المنعم رياض

استمرت المعارك طوال اليوم، ونصف اليوم التالي الخميس، والجرحى يتوافدون على كل الوحدات بالعشرات، والحصر مستمر، والحصد أيضا مستمر، دون أن يتدخل الجيش لمنع المهزلة، حتى صرخ الطبيب محمد خالد في وجه قناة العربية بأن الناس يموتون من نقص الإمدادات، فتحول الحال، وتوافد على المستشفى من يومها عشرات المتبرعين العينيين، فسياسة المكان كانت ترفض المال بعدما أشاع الإعلام المصري أن المعتصمين يتناولون الكنتاكي ويتلقون مائة يورو يوميا، وكان هذا سببا كافيا لأن تصل الإمدادات من البطاطين والأدوية التي تكدست، حتى رفضت الإدارة استقبال المزيد منها، وأرسل جرحى الحالات الحرجة للقصر العيني بعد أن تسجل الحالة.

واشتهر المستشفى في الإعلام الغربي، وبدأت الميديا في الظهور حتى مقتها أطباء المستشفى الميداني، وتوافد أطباء من جميع المستشفيات الجامعية من كل كليات الطب الخاصة والعامة، وبات مألوفا أن ترى طالبا يعانق أستاذه ويذكره بنفسه فكأنما تحولت أرض المسجد إلى محفل علمي وأكاديمي فيه كل التخصصات حتى الأشعة والأسنان وأقسام العناية المركزة والتعقيم حتى المطبخ والمغسلة التي كان يقوم بها الجيران المتطوعون بالمساعدة.

وبعد هدوء نسبي يوم الخميس انتظم ظهور البلطجية يوميا بعد الواحدة والنصف مساء، وكان خروجهم من شارعي طلعت حرب ومن خلف المتحف، وكانت المعارك تستمر ساعة ثم تقلصت إلى أن انتهت تماما قبل التنحي بيومين. ومع طول فترة الاعتصام وتكرار المليونيات انتشرت الوحدات حتى وصل عددها إلى 12 وحدة خدم فيها 320 طبيبا ومساعدا غير التأمين الذي كان يحميها، وكلما دخل الثوار مكانا جديدا انتقلت معهم وحدة من الأطباء مثلما حدث في مجلس الشعب وقصر العروبة حين اعتصم الثوار أمامها قبيل التنحي مباشرة.

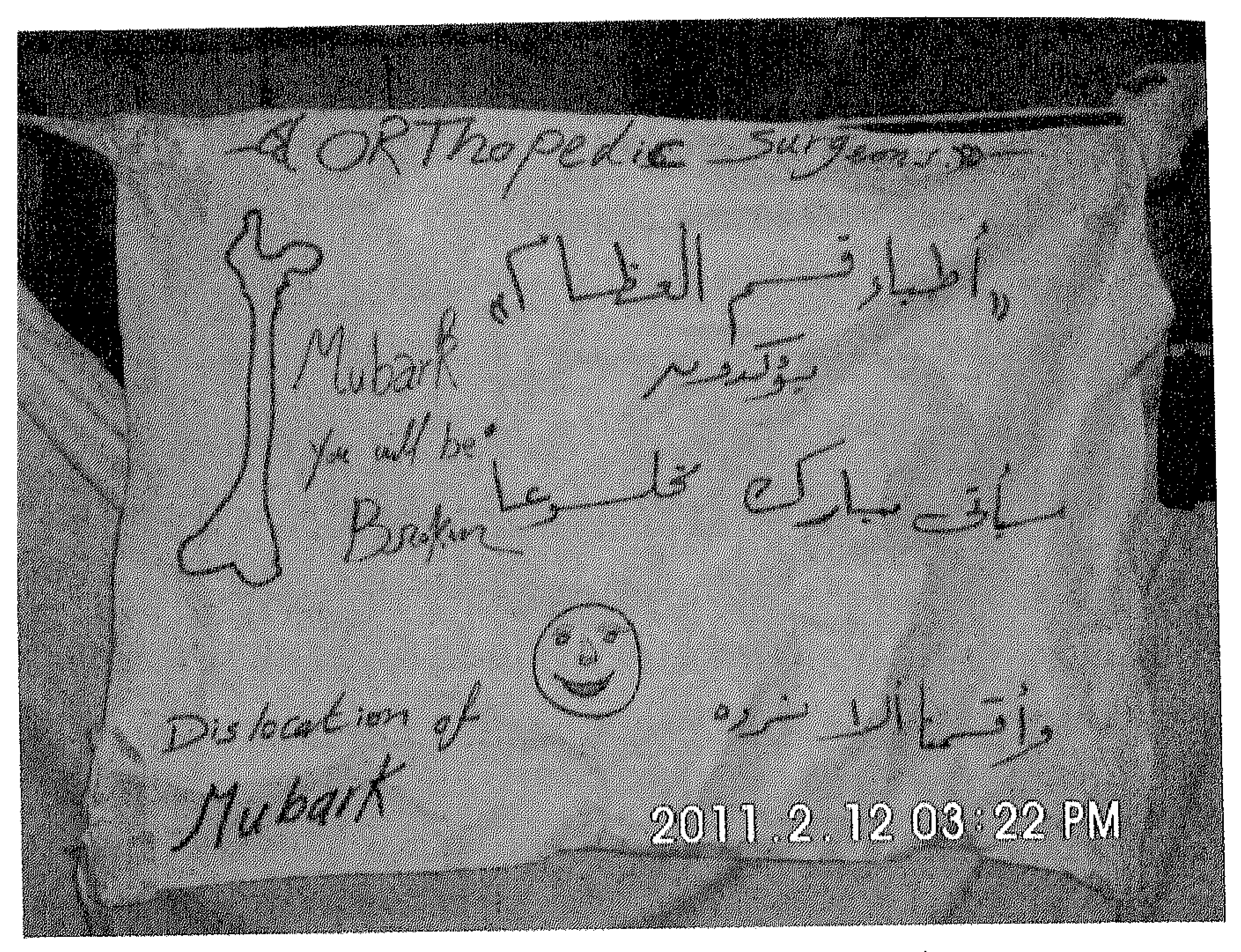


وحدة المستشفى الميداني بشارع مجلس الشعب لحظة اقتحام الثوار للمجلس

بيد أن حياة المستشفى لم تخل من الطرائف، فكل يوم في أوقات الطعام كان ينادى على الكنتاكي المزعوم والمائة يورو، وكان الكنتاكي ساندوتش فول ومعه كوب شاي أو عصير، كما أن الأطباء أطلقوا على أنفسهم لقب "أطباء بلا حموم"، مداعبة لبعضهم، لأن أكثرهم مكث دون استحمام طوال فترة الثورة لصعوبة الدخول بعد الخروج من الميدان، أضف على ذلك محاولات الطبيخ الفاشلة من الطبيبات.



د. نغم نبيل عمر مسؤولة الإغاثة بالمستشفى الميداني تعد وجبة بمطبخ المستشفى احتفالا بتنحي مبارك



خفة دم المصريين لم تفارقهم حتى في لحظات الموت،
صورة طريفة من داخل المستشفى الميداني الرئيسي

هذا بخلاف دعابات المصابين وطرائفهم الطبية التي كانت تخفف كثيرا من المعاناة عليهم خاصة أنهم لم يرتاحوا، فقد كانوا يعودون مباشرة للميدان، كما أن المستشفى كان يقوم بدور توعوي صحي واجتماعي، من خلال الجولات الميدانية الصحية التي كان الأطباء يشرحون فيها للمعتصمين طرق الوقاية من أمراض الشتاء، وأنسب الأطعمة في الاعتصام، وطرق النظافة السليمة لتفادي الأوبئة وتزويدهم ببعض العصائر، والأدوية المجانية للأمراض الشائعة وإعلامهم بأن علاج الأمراض المزمنة يقدم مجانا، بالإضافة لما تيسر من أدوية، وكانت تعد النشرة أ.د. أميمة كامل أستاذ الصحة العامة بكلية طب القصر العيني.

وفي يوم العاشر من فبراير في الحادية عشرة ليلا كان الناس في انتظار خبر التنحي، فلما رفض مبارك في خطابه الأخير التنحي هاج الناس وغضبوا، وانهار كثيرون واستقبل المستشفى الرئيس حوالي خمسين حالة هيستيريا وإغماءات استنفرت كل قوة المستشفى الطبية والنفسية. وفي اليوم التالي كان الوجوم والتحدي مع الضراعة لله هي الحالة الأعم في المستشفى وفي الميدان، حتى ارتفعت الأصوات بالدعاء وقتما نـــزل المطر في صلاة الجمعة يوم 11 فبراير، ومعها تكبيرات التنحي قبيل العصر وغاص المكان بالغناء والأفراح والرقص، وتعجبنا أن كل هؤلاء يجيدون هذا الفن فقد نسينا أنفسنا طوال ما يقرب من شهر.



د. خالد حنفي كبير أطباء المستشفى لحظة تنحي مبارك والأطباء بين الدموع والضحكات

وكنا نظن أن دورنا قد انتهى بذلك، ولكننا فوجئنا بجرس الطوارئ ينبئنا بأن العمل في المستشفى كعجلة الحياة لا تتوقف، فقد استقبلنا خمسين حالة أخرى من الإغماءات والهيستريا وزيارات أمهات الشهداء الباكية هذه المرة فرحا. وكان احتفالنا بعد انتهاء العمل مختلفا، فقد قمنا بإعداد وجبات عشاء لكل الأطباء والمساعدين والحراس حتى للبلطجية والجيران، من الفراخ والخضار والأرز، وكانت المفاجأة أننا الطبيبات طبخنا في مطبخ المستشفى الملوخية وقدمناها بالنداء الأشهر: اليورو، اليورو مع الكنتاكي.



الفصل السادس

رصد.. وكالة أنباء الثورة

عمرو سلامة القزاز(*)

ليلة الخامس والعشرين..

نقاشات وجدال حاد بين مدير (Admin) وحدة الرصد الميداني (سابقا) في المجموعة الإدارية المغلقة حول تغيير اسم الصفحة إلى "شبكة الرصد الإخبارية".. لكي نغطي الحدث الذي لم نكن نعرف أبعاده وقتها.. وهو حدث الثورة، كنت أتحدث إلى أدمن[1] "مدير" (Admin) كلنا خالد سعيد وكنت لا أعرفه وقتها، وتحدثت معه حول رؤيته للحدث قال لي: أعتقد أنها قد تكون بوادر ثورة.

كان أدمن (Admin) خالد سعيد متابعا لوحدة الرصد الميداني حينما كانت تغطى انتخابات مجلس الشعب 2010، وأعجب جدا بفكرة الصفحة، وقد وصل عداد الصفحة وقتها إلى 50 ألفا، وكنت قد طلبت من وائل أو (أدمن Admin خالد سعيد ولم أكن وقتها أعرف اسمه) أن ينشر لينك (رابط) الصفحة لديه لكي نكون

(*) إعلامي وناشط سياسي، وأحد مؤسسي شبكة رصد.

1 سيتم استخدام هنا كلمة أدمن الإنجليزية في النص محل كلمة مدير حيث هي الكلمة المستخدمة في الموقع الاجتماعي "فيسبوك" (المحرر).

أوسع انتشارا وتغطية للحدث، ولكن (الأدمن Admin) اشترط عدة شروط، أولها أن تكون هناك مصداقية في نقل الحدث، وألا ننحاز لأي طرف من القوى السياسية، وألا نهول في الأمر حتى لا يخاف الناس من النـــزول إلى الشارع، واتفقت معه على هذه الشروط.

كنا نحن الأعضاء قد انتهينا من الجدال الحاد بيننا حول تغيير اسم الصفحة من "وحدة الرصد الميداني" إلى "شبكة رصد الإخبارية"، وأرسلت لينك (رابط) الصفحة إلى أدمن (Admin) خالد سعيد ليلة الخامس والعشرين من يناير ووضع الرابط لديه، وقال إن شبكة "رصد" ستنقل أخبار الثورة بحياد تام فتابعوها.

سهرنا ليلة الخامس والعشرين نعد "بانر" للصفحة ونهيئ أنفسنا للتعامل مع الحدث الجديد والفريد من نوعه في مصر.. كنا 15 فردا.. أنا وأنس حسن ومحمود علاء ومصطفى علاء وعمرو فراج وأسامة طلبة ومصطفى شحاتة وخالد نور الدين وسامح مصطفى وخالد متبولي وأحمد عبد الوهاب ومحمد مصطفى ومحمد شحاتة وأحمد أمين وحفصة أحمد وعبد القادر الشيشيني.

قسمنا أنفسنا بين من سيغطي الحدث في الميدان، ومن سيتابعه على الإنترنت، ومن سيتلقى الأخبار من الخط الساخن، ومن سيتابع الرسائل التي تأتينا على الإيميل، ومن سيقوم بمونتاج الفيديوات، ومن سيتابع تويتر والمواقع الإخبارية الأخرى، ومن سيتابع مراسلي رصد، ومن سيتابع الأخبار عبر التلفاز، وهم للتوضيح (معارفنا في المحافظات)، قسمنا أنفسنا بدقة، واختار كل منا أن يعمل في مكان معين استعدادا للحدث.

صباح الخامس والعشرين من يناير

كنا على أجهزة الحاسب الخاصة بنا استعدادا لتغطية الحدث من الساعة الثامنة صباحا، كل من بيته ومن مكانه نلتقط الأخبار من هنا وهناك حول استعدادات ضخمة من جحافل الأمن المركزي في أماكن تجمع المظاهرات في وسط المدينة، وفي شبرا، وفي جامعة الدول العربية.. وكنا نتوخى الحذر الشديد في نشر هذه الأخبار خوفا من بث الرعب في نفوس الناس.. فرفضنا نشرها وأصبحت أنا باعتباري الإعلامي الوحيد أو المرتبط بمهنة الإعلام أقوم بعمل رقابة على كل ما ينشر.

بدأت الصور تأتينا من أماكن عدة لتجمعات مواطنين في شبرا وفي شارع جامعة الدول العربية، وفي الساعة الثانية عشرة تعاملنا مع الوضع وبدأنا في النشر. بدأت الأخبار تأتينا على الهاتف عن بلطجة في شبرا، ومنع للتظاهر أمام نقابة الصحفيين، واحتراق للحواجز في جامعة الدول وكذلك في رمسيس، وفوجئنا بتسارع الأحداث. وفي الحقيقة فإن أخبار التعنت الأمني لم تكن شديدة في هذا اليوم إلا بالتحديد من نصف اليوم حتى آخره.

فوجئنا بأخبار تقول بأن الألتراس شارك المتظاهرين، كما فوجئنا بانضمام فنانين وكتاب صحفيين وأدباء إلى المظاهرات، وبأخبار تقول إن المظاهرات تهتف بسقوط النظام الحاكم وتردد شعار "الشعب يريد إسقاط النظام". انشغل الخط الساخن بقوة، فأصبح الهاتف يعمل طوال اليوم ولا يتوقف عن الرنين، مكالمات من مصر تريد إذاعة الأخبار، ولم نكن نحن ننشر كل الأخبار التي تذكر لنا بالهاتف، بل نحاول أن نتأكد منها من أحد معارفنا وأصدقائنا في المنطقة المذكورة، أو من المراسل الذي جهزناه من قبل لهذا الغرض.

ومكالمات من خارج مصر من تونس والسعودية والإمارات وألمانيا وأمريكا وكندا، ومن كل دول العالم أتتنا مكالمات تؤازرنا وتشد على أيادينا وتبعث فينا روح الأمل.

وكانت هناك أيضا مكالمات من أمن الدولة، كان فحواها: سأتوصل إليكم إذا لم تغلقوا الخط، وأخرى كانت عبارة عن محاولات استفزاز لفريق العمل.

ظللنا طوال اليوم الأول من الثورة نغطي الحدث، ولم نكن نصدق، حتى إن هناك أخبارا تنقل لنا عن أن المتظاهرين وصلوا إلى ميدان "التحرير"، في البدء لم نكن نكتبها، لأننا شعرنا أن بها الكثير من المبالغة، لكنها كانت صحيحة.. كنا نصرخ أحيانا من شدة الفرحة، ونتمنى أن نشارك المتظاهرين في الميدان، لكننا أحسسنا وقتها أن قوتنا هي فيما نفعل، كنا على اتصال طول الوقت بمراسلنا الهمام الشجاع عمرو فراج الذي كان يغطى الأحداث من وسط القاهرة من رمسيس والإسعاف وأمام نقابة الصحفيين وطلعت حرب إلى التحرير، وكان لا يترك مكانا إلا ويوثق علاقته بمن هو متواجد فيه حتى يستطيع أن يعرف الخبر من المكان نفسه.

كان عين "شبكة رصد" في وسط القاهرة شخصا واحدا، استطاعت "رصد" من خلاله أن ترصد الحدث لحظة بلحظة من مكانه، حيث كانت لديه عدة وسائل لإيصال الصور والفيديو من مكانه، مرة عبر التصوير المباشر (bambuser البامب يوزر[1] وهذا لم يستخدم لمدة طويلة بل استخدم لمدة يوم واحد هو يوم 25 فقط،

---

1 طريقة لبث الفيديو المباشر عن طريق الهاتف المحمول، كما يتيح نفس الموقع التشبيك مع المواقع الاجتماعية مثل فيسبوك وتويتر لبث نفس الفيديو عليها (المحرر).

وبعد ذلك حجب في مصر، واستخدم أيضا خاصية رفع الصور رفعا مباشرا عبر موبايله، وأخيرا إذا وصل مكانا ثابتا كنقابة الصحفيين يستطيع عبر جهاز الكمبيوتر الصغير الذي يمتلكه واليو إس بي رفع الفيديوات.

تزايد عدد المعجبين في الصفحة من أول يوم إلى مائة وخمسين ألف متابع لـــ "رصد" في اليوم الواحد، وعندما يزداد عدد المعجبين في الصفحة تزداد مسؤوليتنا وثقتنا في نقل الخبر الصادق من موقع الحدث لحظيا. اعتمدنا في هذا اليوم على الـــ "بلاك بيرى" والـــ "آى فون" وبعض وسائل الإرسال المباشر التي كان يملكها شباب 25 يناير في هذا اليوم.

واعتمدنا في مراسلتنا في المحافظات على معارفنا، وأطلقنا عليهم المراسلين في ذلك الوقت، وأصبحنا نتصل بهم كل ساعة تقريبا أو أقل عندما تزداد السخونة في بعض المحافظات كالدقهلية والسويس مثلا، ووضعت أمامنا بعض الأرقام في أغلب المحافظات، وأصبحوا مراسلينا من هناك. لكن في بعض الأحيان كان الخط الساخن وسيلة فعالة جدا في نقل الخبر وكنا نتأكد منها عبر المراسل الذي حددناه سابقا من تلك المحافظة.

وفوجئنا آخر اليوم باعتصام الشباب في التحرير، وغطينا الحدث من هناك لحظة بلحظة ونقلنا الصورة كاملة، بل كنا ننقل الصور من هناك وتقريبا كنا نحدث في وقت الليل كل دقيقه "بوست[1]" لعدم تصديقنا أن الوضع وصل إلى ذلك الحد، وفوجئنا وقتها في الساعة الواحدة بهجوم مباغت من قوات الأمن على الشباب. وقتها أصيب

1 بوست تعني إلصاق كلمة أو بند أو خبر أو تعليق على موقع الفيسبوك وهي من الكلمة الإنجليزية Post (المحرر)

عمرو فراج في هذا الحدث وهو يلتقط الصور، لكنه حاول جاهدا أن يفلت من أيدي المخبرين الذين كانوا يترصدون أي فرد يحمل كاميرا أو حتى موبايل يلتقط به بعض الصور، ونقلنا وقتها الحدث من على الجزيرة إلى أن جاءتنا الفيديوات متأخرة بعض الشيء، واعتمدنا على الإيميل في رصدنا المصور للحدث.

ما بعد البداية

جاء اليوم التالي للثورة (26 يناير) وكان أغلب أحداثه هي عمليات اعتقال، وكان أي شخص يذهب إلى التحرير يعتقل، أو يشتبه في قيامه بمظاهرة، وفي الحقيقة "رصد" كانت اللاعب الأساسي في توجيه المظاهرات يومي 26 و27 يناير.. حيث كانت الاتصالات تأتينا عبر الهاتف عن معرفة مواعيد المظاهرات أو حتى قيام مظاهرة بمنطقة ما، وكنا نستخدم ذلك في الحشد للتظاهرة، ونخبر المتواصلين معنا أننا سنقوم بتغطيتها إعلاميا، وكنا نحثهم على عمل المظاهرة في الأحياء بدلا من الميادين ليخرجوا بالناس من الداخل إلى الخارج. وفي الحقيقة كنا نصنع الحدث في هذين اليومين، في الوقت الذي نــزل فيه أدمن Admin صفحة (كلنا خالد سعيد) إلى المظاهرات ولم يستطع توجيه الناس أو حشدهم.

أيضا في هذين اليومين استطعنا أن نكون شبكة مراسلين غير عادية من المواطنين في كل أنحاء مصر بل في كل أنحاء العالم، حيث كانت ترسل لنا فيديوات لمظاهرات احتجاجيه أمام السفارات المصرية، وفى الداخل (مصر)، وسبقنا الجزيرة في تغطيتنا لأحداث السويس، حيث إننا أول من نقل أحداث السويس مباشرة، وكانت التغطية مصورة ولم تكن إخبارية فقط.

وكذلك كنا أول من نشر فيديوات لأحداث الثورة في السويس حيث اعتمدنا في التغطية المصورة على الإيميل واعتمدنا على مراسلنا في معرفة الأخبار، واعتمدنا أيضا على رسائل الوسائط التي كانت ترسل إلينا عبر الموبايل، وهى كانت عبارة عن صور أيضا، واخترقنا حاجز عدم التغطية من السويس، وأصبحت "رصد" الجهة الوحيدة في نقل الخبر من هناك، كان ذلك يرهقنا بشدة، حيث إننا كنا نعمل 19 ساعة عمل متواصل وخمس ساعات ننام فيها، وأحيانا كنا نتبادل المواقع، وإلا فاتنا خبر عاجل أو صورة هامة أو فيديو يجب أن يخرج للنور أو اتصال هام من مواطن.

استقرت الأحداث على هذا النحو الذي نسير به حيث كنا مصدرا لـــ "الجزيرة" وغيرها من القنوات الفضائية ووكالات الأنباء، وكانت "الجزيرة" وقتها تكتب الخبر نقلا عن شبكة رصد الإلكترونية، وأغلب الأخبار حين إغلاق مكتب الجزيرة كان من خلالنا حيث أصبحت القناة تعتمد علينا كمراسلين لها، وتعتمد على فيديوات كنا نبثها للعالم عبر "رصد".

استمررنا في نقلنا للحدث إلى يوم 28 يناير، وانقطاع الإنترنت، حيث فوجئنا في ليلة 28 يناير بانقطاع الإنترنت، وفي صباح الجمعة فوجئنا بانقطاع الهاتف، وفي الحقيقة فإن هذا الشيء هو الذي أدى إلى تدافع الناس للنـــزول إلى الشارع لمعرفة ماذا يحدث، ونـــزل فريق شبكة "رصد" بأكمله إلى الشارع كل منا يمسك كاميراته الشخصية يرصد تداعيات الحدث، وفى هذا اليوم بالتحديد اعتمد فريقنا من خارج مصر اعتمادا كليا على القنوات الفضائية، وأيضا على الخط الساخن الذي خصصوه ليتواصل معهم المصريون في الخارج، وكانت الأخبار تأتي لهم عبر أقرباء لهم في مصر وبالتالي

يتصل المصريون في الخارج بالخط الساخن وينقلوا الحدث، واعتمد الفريق الذي كان يعمل خارج مصر في الصور على وكالات الأنباء، ووقتها كان فريق "رصد" يغطي الحدث بالكاميرات الشخصية التي يملكها كل فرد فينا، وقسمنا أنفسنا مجموعات: واحدة في ميدان الجيزة وأخرى في التحرير وثالثة في جامعة الدول، وطبعا انقطعت المراسلات عن فريق "رصد" الموجود في بقية المحافظات.

ولم نقتصر على التصوير فقط بل اتفقنا قبل أن نفترق على أن نعطي الصور لمكتب الجزيرة في القاهرة ونساعدهم في تغطيه الحدث، وعلى أن نذهب لمكاتب وكالات الأنباء ونعطي لهم ما صورنا حتى تتضح الحقيقة الكاملة للعالم، وبالتحديد ما يحدث في القاهرة في هذا التوقيت بالذات. استمررنا على هذا الحال حتى ساعات متأخرة جدا من الليل إلى أن عاد الموبايل إلى العمل صبيحة السبت ولم يعد الإنترنت، واستطاعت "رصد" أن تخترق انقطاع الإنترنت وأن ترسل الأخبار لفريق العمل الذي كان يعمل خارج مصر عن طريقين:

الطريقة الأولى عبر موقع Ping.fm، وموقع تويتر.. حيث وفر هذان الموقعان لمستخدميهما خدمة إرسال الأخبار عبر أرقام خصصوها لهواتف المستخدمين المحمولة، وكذلك عبر إرسال الخبر من الموبايلات -الهواتف المحمولة- للمواقع الاجتماعية مثل الفيسبوك وتويتر وغوغل بز، لكن هذه الخدمة لم تستخدم إلا قبل رجوع الإنترنت بيومين، لأن خدمة الرسائل كانت متوقفة في مصر، والطريقة الثانية هي الاتصال بهم، وكان هذا يكلفنا كثيرا جدا.

كنا نجمع المعلومات عن طريق الاتصال بمراسلينا في المحافظات ونجمع الأخبار مرة واحدة ونرسلها للفريق الذي كان يعمل خارج مصر، وأصبحنا أشبه بغرفة عمليات، حيث قام الناس بتناقل أرقام

"رصد" بينهم في جميع المحافظات وأصبحنا نستقبل الأخبار، وكان فريق آخر منا يتصل بهم ويرسلها لهم، وفريق ثالث كان على تواصل مع وكالات الأنباء مثل: رويترز والفرنسية وأسوشيتدبرس وفريق الجزيرة في القاهرة يبلغهم بالأخبار أولا بأول. ولم نتوان أيضا عن إرسال الصور والفيديوات التي تصلنا إلى الفضائيات للنشر، حيث كنا نبذل جهدا رغم قلتنا، فقد كانت بداخلنا همة كبيرة جدا لنشر الفيديوات للعالم كله، ولنشكل رأيا عاما ضاغطا على النظام المصري البائد ونفضح جرائمه. وقد ظللنا نعمل طيلة هذه المدة على وضعنا هذا، نقوم بتصوير اللجان الشعبية في الشوارع، وما يحدث بميدان التحرير، ونلتقط ردود أفعال الناس، حتى أصبح لدينا في وقت انقطاع الإنترنت مخزون كبير جدا من الصور والفيديوات، كنا نتواصل مع الصحفيين يمدوننا بالصور ونمدهم بالأخبار، هكذا كنا نعمل.

وكان لنا في ميدان التحرير مقر أو مكان نلتقي فيه وكان بالتحديد في المستشفى الميداني بالميدان لنفرغ المخزون من كاميراتنا، ونقوم بشحنها ثم ننطلق من جديد لنصور الجديد في ميدان التحرير، أو ننتقل في أرجاء القاهرة إذا سمعنا عن بلطجة تحدث أو ما شابه من أخبار.

عودة الإنترنت

وجاء الإنترنت، وفي عصر اليوم الذي جاء فيه الإنترنت اخترقت شبكة "رصد" على الفيسبوك وفوجئنا بأننا لسنا أدمن (Admin) الصفحة، وقتها عرفنا أن أمن الدولة قام باختراق الصفحة، لكننا لم نمل ولم نيأس أو نحبط، فقط أنشأنا صفحه جديدة

بالعنوان نفسه مع إضافة رقم 2 للتفرقة بين الأصلية والمسروقة، وعلى الفور بدأنا العمل فيها حتى وصل عدد معجبيها بعد 3 أسابيع من إنشائها إلى 300 ألف شخص، ما يدل على شعبيتنا في الفيسبوك.

وكنا نعمل وقتها بطريقه (الفايرل إيفكت) أي "الانتشار الفيروسي"، حيث كنا ننشر الخبر على الفيسبوك وينـــزل وقتها على تويتر عبر التشبيك بين المواقع الاجتماعية، ويتناقله المتابعون لنا على تويتر وبدأنا في نشر فيديوات خاصة بنا عليها علامة رصد وبدأت تنتشر في وسط الفيسبوك لما لها من تأثير وقوة في الحدث.

ومع عودة الإنترنت إلى مصر، بدأنا ننظم الصفوف مرة أخرى ونضع أمامنا هدفا نريد أن نصله هو توصيل الحقيقة للناس مهما كلفنا الأمر، وأصبحنا ننقل الحدث بطريقة أحدث عبر البث المباشر من وسط ميدان التحرير بالموبايل، وعن طريق الصحفيين الذين كانوا يساعدوننا، حيث كانت وكالة أنباء الشرق الأوسط آنذاك تتبع النظام السابق وكان صحفيوها ومراسلوها ساخطين على ما يفعله رؤساء التحرير ورؤساء الأقسام فبدؤوا في إرسال صورهم لنا لننشرها، وعملنا وقتها على مرحلتين:

المرحلة الأولى: تجميع أكبر قدر من الصور والفيديوات للأيام التي انقطعت فيها شبكة الإنترنت وغيرها من أيام ماضية.

المرحلة الثانية: الوصول لأكبر قدر من المراسلين لعمل شبكة إعلامية ومحاولة منا للتعرف إليهم ليمدونا بالمعلومات والصور.

وأصبحنا نعمل مثل الأول بل وبشكل أكثر تنظيما، حيث زاد أطقم المراسلين المستعدين للعمل من دون مقابل، وأدخلنا متطوعين يعملون بالمونتاج والتصوير، وأصبحنا خلية نحل تصور في كل بقعة في ميدان التحرير، لقاءات مع المعتصمين، مع الإعلاميين،

وائتلاف الثورة، أيضا زودنا عدد المراسلين في المحافظات، وأصبحت وسيلة إرسال الصور والفيديوات عبر الإيميل وموقع مجموعة المراسلين الذي أنشأناه وعبر الاتصالات الهاتفية، والبث المباشر بالموبايل.

كنا أقوى شبكة في الإعلام الناقل للثورة، وأكثر الشبكات نقلا للأحداث والفيديوات الحصرية من داخل الميدان أولا بأول، ولذلك كان لا بد من أن يواصل أمن الدولة مضايقته لنا، فقبل "موقعة الجمل" بيوم واحد قام باعتقال 5 من أدمن (Admin) الشبكة كانوا يستقلون سيارة ملاكي في شارع لاظوغلي، وقامت الشرطة العسكرية بالقبض عليهم واختطفوهم ليوم واحد فقط، كانوا يهدفون وقتها إلى عدم تغطية ما يحدث في الميدان من أحداث "موقعة الجمل" كما يطلق عليها، وتم اختطافهم في أمن الدولة وبالتحديد في لاظوغلي وشهدوا أبشع أنواع العذاب من تعذيب بالكهرباء إلى تعذيب نفسي وجسدي بالضرب والركل المبرح.

وقد يسر الله لهم أن خرجوا بعد اختطافهم بيوم واحد فقط، وعلى الجانب الآخر كان الشباب يقومون بتحديث الأخبار أولا بأول، ويصورون الحدث لحظة بلحظة ويقومون برفع المادة على اليوتيوب ثم نشرها على الصفحة. وفي الحقيقة فإننا -بكاميراتنا العادية التي لا ترتقي أن تكون مثل كاميرا أي صحافي تلفزيوني- استطعنا أن نرصد القناصين مثلا فوق البيوت، وفوق فندق هيلتون رمسيس، وأن نرصد أشخاصا بعينهم كانوا يحرضون الناس، وأن نصور بلطجية قبض عليهم في الميدان (وبعد تنحي مبارك طلب منا النائب العام في اتصال شخصي أن نعطيه كل هذه الوثائق التي بحوزتنا وتعاونا معه وأعطيناه كل ما نملك من أرشيف). وقد صورنا

كل تفاصيل الحدث بدءا من يوم الثلاثاء حتى مليونية الجمعة، حيث أفرج عن زملائنا في رصد يوم الخميس.

وقتها أعلن ائتلاف الثورة عن أسبوع آخر أسموه "أسبوع الصمود"، وكنا لم نقتصر على ميدان التحرير فقط بل غطينا ميدان مصطفى محمود وصورنا المظاهرات التي كانت داعمة للرئيس المخلوع مبارك. أيضا لم نقتصر على تغطية الحدث، فقد كنا نهتم جيدا ببث المعنويات في النفوس، حيث كنا نصور بعض الكلمات مع بعض قادة المجتمع لرفع همم الناس وزيادة الحشد في ميدان التحرير بعد توقف صفحات "كلنا خالد سعيد" لاعتقال وائل غنيم وقتها.

واستطعنا في هذا الأسبوع –نظرا لعدم تطور الأحداث فيه أيضا– أن نوثق الحدث في المستشفى الميداني، وأن نقوم بعمل أفلام قصيرة، واستطعنا أن نجعل هؤلاء المصابين والشهداء أيقونات لاستمرار الثورة من خلال بعض الفيديوات والتصميمات التي أثارت الناس آنذاك، إلى أن جاءت "جمعة التنحي" وانقسم المراسلون عدة أقسام: جزء في التحرير وآخر في القصر الجمهوري، وثالث في الإسكندرية. كنا نتأهب لهذا اليوم خصوصا بعد خطاب مبارك يوم الخميس الذي أثار كثيرين. وكنت أنا وقتها ضمن المراسلين الموجودين أمام القصر الجمهوري، وشهدت خطاب تنحي مبارك أمام القصر، وعندما سمعت الخطاب دمعت عيناي بشدة، وتمنيت لو كنا كلنا سويا "رصد" لنحتفل بذلك المجهود الضخم الذي بذلناه.

الفصل السابع

الفن في الميدان.. بين استلهام الثورة وإزالة آثار العدوان!

ياسر علام(*)

العجة الحجرية

يوم حلقت الطائرات الحربية على ارتفاع منخفض فوق سماء وسط البلد، مع أنها لم تسقط قذائف، تصاعدت سحائب الرعب الدخانية بالفعل، لتصل إلى ذرى لم تبلغها حتى في جمعة الغضب الشهيرة الموافقة ليوم 28 يناير 2011، تلك التي لم يكد يمضي عليها أسبوع، فهنا والآن المشهد مختلف تماما، فمواجهة الشرطة شيء محتوم، لكن مواجهة الجيش شيء لا يتصوره عقل.

لقد كانت ممارسات جهاز الشرطة خاصة القطاعات التي كانت تتعامل مع جماهير تطالب بحقوقها المشروعة عبر التظاهر والاعتصام والإضراب والوقفات الاحتجاجية أشرس من أن تسمح لدفقة تقدير أو تعاطف أو حتى تبرير أن تمر بين ثنايا وجدان من نالته أيادي الشرطة البيضاء بكل خير.. وبتعبير آخر فإن نظرة موضوعية

(*) كاتب وناقد مسرحي.

تجافي التعميم الحاسم بكون جهاز الشرطة ليس إلا قتلة مأجورين أو مرتزقة مرتشين أو بلطجية فاسدين، أي مجافاة لتعميم من هذا النوع رفاهية وتحاذق ورخاوة ثقافية لا تنال ذرة مصداقية. لكن الجيش المصري مؤسسة حفرت في الوجدان المصري العام تصورا مفارقا تماما لهذا الذي سطرته -أو بالأحرى سودته- الشرطة بنفسها لنفسها.

الجيش المصري هو هذه المؤسسة العريقة التي ورثت تراثا يمتد لآلاف السنوات لم تكن فيها المؤسسة العسكرية المصرية يوما أداة لتحقيق أطماع توسعية أو مشاريع استعمارية.. هي المؤسسة التي يوم سمح للمصريين بالتطوع فيها كان من أول خريجي دفعاتها الجندي أحمد عرابـــي، وغير بعيد عن تخريج أول دفعات الضباط خرج أحمد عبد العزيز، ومحمد نجيب، وجمال عبد الناصر وعبد المنعم رياض وسعد الدين الشاذلي وأحمد إسماعيل وإبراهيم الرفاعي، ومن قبلهم جميعا كان عزيز المصري ومحمود سامي البارودي.. وهي المؤسسة التي حين استشرى فيها ما لا يليق بالعسكرية المصرية طهرت نفسها بنفسها، وتولى منها رجال مسؤولية هذا التطهير، واستهدفوا ملاحقة هذا الفساد في أرجاء الوطن ككل كما طمحت لذلك ثورة يوليو 1952، ثم إن هذا الجيش هو جيش أكتوبر 1973.. جفت الأقلام.

الشاهد أن الجيش في الوجدان المصري يعني المؤسسة الأكثر انضباطا والأكثر حرصا على أن تظل كذلك في وجدان شعبها، وحين تولت مسؤولية تأمين البلاد عقب أحداث فرار أشاوس الداخلية تنفس الكثيرون الصعداء.. وظل البعض يأخذ بعين الاعتبار كون الرئيس -وقتذاك- هو أحد رجال تلك المؤسسة، ما يعني أن الكشف السافر عن فساده سيزعج عقلاء تلك المؤسسة الذين

يفضلون حل مشكلات من هذا النوع داخليا، غير أن فكرة كونه ليس ضابطا أخطأ أو قائدا لم يقم بالمهام المنوط به.. بل إن خروجه إلى منصب رئاسة الدولة رئيسا مدنيا يعني الاحتكام للشعب ككل.. ذلك الشعب الذي خرج لتنحيته.. خاصة أن أفعال هذا الرئيس وقراراته -منذ ما يزيد عن عقد- صارت بمنأى عن تقبل النصح والمشورة من تلك المؤسسة أو غيرها، فصار أسير هوى العائلة التي تسببت في سلب أمجاده كما كان يلمح إلى ذلك -أو يصرح بذلك- الجنود قبل الضباط.

نعود لمشهد التحليق المنخفض الذي استدعى كل تلك التداعيات.. فلم يكن مألوفا أن تحلق الطائرات العسكرية فوق العاصمة المدنية بهذه الكيفية، وحتى صوت الانفجار الذي أعقب مرورها اختلف المعتصمون في الميدان في تفسيره، فبين قائل إنه ليس سوى اختراق لحاجز الصوت، إلى من قال: إنه نتاج فعل مماثل للأعيرة الصوتية التي تطلق في الهواء لتفريق المتظاهرين، إلى من عده صوتا عاديا يحدثه هذا النوع من الطائرات التي لم نعتد حضورها بتلك الكيفية.

فإذا كانت هذه التفسيرات قد تداعت غزيرة بشأن صوت صدر عنها فحسب، فماذا عن فكرة تحليقها؟.. البعض قال: هي أداة اختبار لأعصاب للمعتصمين، والبعض قال: على متنها رحل الرئيس، والبعض قال: ليست إلا أداة تأمين لوزير الدفاع الذي يتفقد جنوده الآن قرب ماسبيرو، البعض قال: صوت أحدث كل هذا القلق، فماذا لو سقط منها شيء ولو بطريق الخطأ؟! مهما كان هذا الشيء ولو كان زجاجة ماء، عندئذ ستتدافع الجموع وتحدث كارثة، والبعض صفق للطائرات، والبعض قال: أخشى أن هذا

المكان الذي حمل يوما تسمية "الكعكة الحجرية"[1] يمكن أن يحمل بعد اليوم تسمية "العجة الحجرية".. فضحك الحاضرون.. وكان أولئك فنانين من الميدان.

1 إشارة إلى قصيدة "الكعكة الحجرية" التي كتبها الشاعر الرحل الكبير أمل دنقل منذ 38 عاما خلال مظاهرات الطلاب عام 1972 التي خرجت إلى ميدان التحرير بعد اعتقال 1500 طالب جامعي اعترضوا على سياسة "اللا سلم واللاحرب" التي انتهجها الرئيس المصري الراحل أنور السادات مطلع السبعينيات. وتعبير "الكعكة الحجرية" كان إشارة لميدان التحرير الذي تمركز فيه الطلبة للتعبير عن غضبهم في هذه المظاهرات التي اشتهرت باسم "مظاهرات 72". (المحرر)



ميدان التحرير.. الأسبوع الأول من فبراير 2011..

رسم جداري على حوائط الحمام المقام في الميدان للثوار..

تصميم وإشراف وتنفيذ الفنان صبحي الحجار وبمشاركة الثوار في مهمات التنفيذ.

مواطنة تحريرية

"ما عنديش حاجة جديدة

أنا هبة الحسيني... بس... ما عانديش حاجة

الحاجة اللي هاعملها هي اللي هتتكلم عني..

أما يشوفوا الفيلم... هما هيعرفوا لوحدهم

من غير ما أتكلم أنا.."

هذا ما تحادثك به المخرجة هبة الحسيني.. طموحها فيلمها "جمهورية التحرير" سيكون هو سفيرها للناس، الناس هم الجماهير، وهم أولئك التي حاولت هي التواصل معهم غير ذات مرة، لكن سبيلها إليهم كان ضمن نخب ثقافية اندرجت هي ضمنهم، أما تلك النخب التي تحركت في رحاهم سعيا للوصول إلى الناس.. فكانوا إما تنمويين أو فنانين.. تركت هبة إحدى قدميها في هذا الوسط وتركت الأخرى في الآخر.. لكنها لا تكاد تفرق بين هذا الفصيل وذاك، إلا وتعود لتمزجهما عبر قواسم مشتركة تغلفها خبرتها ووعيها بهم، بجسارة لا تعرف مواربة وقنوط تشوبه ثورة أكثر سطوعا من أن تتوارى تحدثك هبة فتعلم حكايتها وحكاية بلدها.

انضمت هبة بحكم دراستها للحقوق لوسط منظمات المجتمع المدني خاصة الحقوقية منها، وبحكم ميولها الفنية استخدمت كاميراتها في مهمات توثيق في هذا المضمار، وهنا قررت أنها تريد أن تكون مخرجة، ونقدها الأهم للوسطين الفني والتنموي أن كثيرين من ممتهني العمل في الوسطين يسعون بالأساس للمكاسب المادية على حساب الدور الاجتماعي الحقيقي، وهي بدرجة ما تعذر أمثال هؤلاء لكونهم

يسعون وراء لقمة العيش داخل مناخ أجبر من يحيون فيه على اللهاث الدائم وامتهان أصول وقيم الحرفة هنا وهناك.

غير أن الحضور الملحوظ لمنتمين لهذين الوسطين على وجه التحديد في الثورة الأخيرة تبرره هي بتضاؤل متسارع لمساحات التنفس الفني والتنموي بالمعنى المهني، بات من الواضح أن ما يقلصه ممارسات سياسية، والمطالب الفئوية التي تراكمت عموما في السنوات الأخيرة، وصار من الواضح أنها تقف عند سد سياسي بات هدمه حتميا لتغيير الأوضاع.

ترصد هبة حضور الفنانين منذ بداية أحداث الثورة، لكنها تؤكد أنها تصاعدت بعد الأسبوع الثاني بعد اتضاح المشهد لهم، وتعود فتؤكد أنه منذ اليوم الأول كان هناك فنانون أمثال عمرو واكد وفتحي عبد الوهاب وخالد يوسف، ثم تلا ذلك موجة أخرى من الفنانين.. ثم مع رحيل مبارك توافدت أعداد أكبر وانضمت.. وهي تؤكد أن تقدير الأول لديها ولدى الناس لن يتساوى مع من تلاهم، حيث كان حضور الأوائل حضور المواطن، لكن من تلاهم كان حضورهم أشبه بحضور النجوم الذي لا يمكن أن يمر حدث بهذا الحجم دون أن يسطعوا في سمائه، ثم توافد بعد ذلك التائبون أو مدعو التوبة، ذلك أن تاريخ 25 يناير ليس تاريخ ميلاد أولئك الفنانين، إنهم موجودون من قبل وتكونوا من قبل، وعمرو واكد كان موجودا في أحداث 6 أبريل.. وفي موضوع الحد الأدنى للأجور في مايو 2010.. كذلك خالد الصاوي ومحسنة توفيق التي كثيرا ما جمعت هبة بها وقفات احتجاجية.

وترفض هبة النظرة التي حاولت تمريرها منظومة الإعلام الرسمية، ومفادها أن الفنانين الذين شاركوا في الأفعال النضالية كانوا خارج

دائرة الضوء، لذا كان لديهم انشغال آخر غير فنهم.. وهي ترى أن انحسار الضوء عنهم كان بسبب مواقفهم النضالية بالأساس، وهي تستحضر بذلك طغيان مؤسسة الميديا الرسمية وحلفائها التي أجبرت المواطن العادي على هضم شخوص ومشاريع فنية عسيرة الهضم، عبر تكرار عرضها والترويج لها واستبعاد التجارب المختلفة نوعيا، والإيحاء بقيمة فنية مغلوطة عبر أقلام نقاد مأجورين يوزعون صكوك التمرير والشهرة، هكذا في الميدان، يكون الحديث عن الثورة حديثا عن فساد أشعلها فأشعلت فيه نارها.. فيكون الحديث عن الفن حديثا عن الثورة، ويكون العمل الثوري فنا، ويكون الفن عملا ثوريا، وتنطلق هبة من دائرة الوعي السابق بالمشهد الفني وسياجه الميديوي فترى أن الميدان "كسر حاجز الخوف" الذي هو -تعني الخوف- مشروع النظام السياسي السابق، فالثقة بالذات وبالوعي وبالدور هي نتاجات الثورة.

الكاميرا كانت سلاح هبة منذ أول لحظة حتى قبل أن يولد مشروع فيلمها، كانت تريد أن تسجل الحقيقة للقادم، وإبراء للذمة التاريخية لهذا الجيل، لكي لا يحرف التاريخ، لكنها تحولت بعد ذلك لضرورة ميدانية مع هبوب الحملة الإعلامية المضادة للميدان، فمع انكسار عصا الأمن الغليظة التي هي كل ما يعرفه اللواء حبيب العادلي، تبلورت سياسة مختلفة تماما مع تولي اللواء عمر سليمان مقاليد مواجهة الميدان، فرجل المخابرات أطلق حرب الشائعات والتضليل، ولم يعمد للصلف المجهول مثل سابقه، هنا كانت الكاميرا ضرورة ميدانية، لكي يعرف العالم خارج الميدان أنه لم يكن هناك كل ما أشيع عنه، فلا استقواء بالخارج ولا أجندات أجنبية ولا حتى وجبات كنتاكي المزعومة، ولا بلطجة ولا ابتزازاً عاطفياً بمقام الرئاسة نجح في هز الميدان.

كاميرا هبة تسجل كل لحظة في الميدان، حتى حين تغيب الكاميرا هناك التليفون المحمول، وحين تجبر على تسليم كارت الذاكرة لمحاصريها في الشوارع الجانبية المحيطة بالميدان لديها نسخة أخرى من محتوياته، وهذا ما لن يفهموه، المهم أن تعبر المادة المصورة، لأن ما يحدث في الميدان هو ما يسحق الخوف فيستحق البقاء، لأنه، وفي الميدان، تتولد الثقة بالذات الفردية والجمعية معا، ويوما ما سنحتاج جميعا لهذا اللحظة -يوم تخوننا الذاكرة- سيحاول الفيلم "جمهورية التحرير" تذكيرنا بها وتخليدها.

"هنا في هذا الفضاء المحرر نحن نحيا لا نتظاهر.. نحيا حياة حقيقية ينبغي أن تكون هي النموذج الذي يتسع فيضم الوطن ككل .. إن كانت مرحلة الميدان تتطلب الحشد .. فإن مرحلة ما بعد الميدان ستتطلب التوعية .. هكذا تستمر الثورة فعالة ..".

مسامر العنقاء

حين تستوقفك واحدة من لوحاته التي ستجدها معلقة فوق عربة الأمن المركزي المحروقة.. التي تم تحويلها إلى مقلب قمامة خطت فوقه عبارة "مقر الحزب الوطني"، لتوضع بذلك ضمن قائمة العمل المركب في مصنفات الفن التشكيلي، أو حين ستجد أعماله فوق سلال القمامة بلوحاته التي تجمع بين مجون الكاريكاتير الساخر الساخن والقيمة التشكيلية للوحة ستحتار.. جرأة هذا الفنان في استخدام أدواته تقول إنه مجرب وذو خبرة، لكن عنفوانه التجريبـــي الذي لا يخلو من نــزق سيجعلك ترجح حتما أنه لم يتجاوز العشرين إلا بسنوات قلائل.. وحين تستعلم عنه سيخبرونك أنه عصام بتاع السويس.. من هو؟!

يخبرك رفاق الميدان أنه الفنان الذي شارك بحماس في صناعة العرائس التي جسدت مسؤولين، أعدمتهم الجماهير غير ذات مرة في فواصل تمريجية لا تخلو من جد.. أعدمتها بعد أن أذاقتها بعض ما تستحقه من ركل وتقريع في طقس تجريس كرنفالي شعبـــي، لعروسة تحمل رأس حاكم، أبى إلا أن يكون حاكما برأس عروسة.. تبحث عن الفنان الصانع فيخبرونك أنه كان هنا ثم ذهب إلى هناك.. فهو لا يكاد يستقر في موضع.

تلاحقه حسب وصفة الواصف، بحثا عن فرقة من شباب تمر في حالة دروشة غنائية على المجموعات التي عسكرت في الميدان.. تقوم تلك المجموعة بوظيفة المسحراتي ذلك الذي يوقظ الناس قبل أن يدهمهم الفجر فيفوقم السحور.. لكنهم هنا يوقظون البشر ليرفهوا عنهم ويستنهضوهم لكي لا تغفل عيونهم فيهاجمهم عدوهم في لحظة غادرة، فهذا طبعه ولم يتخلف يوما عن سوء ظنهم به.. تريد أن تعرف أي شاب هو في الدراويش المسحراتية المحبظتية، من منكم عصام الرسام.. فتكتشف أنه هذا الشيخ الذي يقود الجماعة بجموح شاب وإبهار ساحر.

عصام الخطيب مدير مركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار في محافظة السويس: آمنت دائما بالفن وسيلة للتنمية والتغيير للأفضل.. أثناء محاضراتي في الحاسب الآلي كنت في فترات الراحة أحادث الشباب، فأجدهم أبدا لا يفتقرون للوعي، بل إنهم ظامئون للمعرفة حين تقدم لهم بشكل يحترم عقولهم.. لكن المؤسسات التعليمية، وبدأب، تدمر هذه الروح.. كذلك فإن مؤسسة مثل الثقافة الجماهيرية التي من المفروض أنها تمتلك بيتا ثقافيا في كل موقع تستخدم هذا البيت في أي شيء إلا الدور

المنوط بها.. لا توجد مؤسسة تقوم بدورها.. الشباب بأقل الإمكانيات يستطيع أن يفعل الكثير.. أتعجب كيف رغم كل محاولات النظام السابق نجا شبابنا من التخريب.. من ابني تعلمت الكثير.. وعبر المنتديات ومواقع التواصل الاجتماعي أعاد هؤلاء الشباب بناء عالمهم الحقيقي.

المهندس عصام حكواتي بارع تلتف حوله الجماعة، فتشعر به الراوي على الربابة ينقلك إلى آتون معركة السويس النضالية واحتراق المدينة الباسلة، وهو أبدا يستنهض النفوس حول نار السمر.. يتحول هو عبر الحكي إلى القابلة التي تستقبل العنقاء تلك التي تعود للحياة من جديد عبر الاحتراق.. يحكي عن السويس تلك التي خرجت في مظاهراتها السلمية فكان ما كان.. يحدثك عن ابتزاز أهالي الشهداء بدفع ثمن استخراج الرصاصات من أجسادهم وعدم كتابة تقارير للدفن.. يحدثك عن ضباط حبسوا المجندين لتحترق بهم العربات والأقسام، وكيف أن الأهالي لم يتركوهم دون مساعدة.. فلا يتباهى بالضحية التي أسعفت الجلاد.

يفتقد الميدان المهندس عصام، لكن أعماله الفنية تظل وأثره يبقى.. ثم يعود بعد أيام بآلام وحكايات جديدة حيث يقبض عليه من أمام قصر الرئاسة ويودع في السجن الحربي وليحول ظهره بفعل التعذيب إلى مسطح للنحت الغائر.. ويحكي ويرسم ويعود للسويس بروح الميدان، فيؤسس هناك منتدى السويس الثقافي الثوري مستلهما قيم الثورة أملا في توجيهها في البناء.. والبناء لديه يعني الأرض الصلبة.. الأرض الرخوة غير المتماسكة تعني الهلاك.. الثبات على المبدأ ومحاربة الفساد في البنيات المؤسسية

كافة لإخراج المختبئين من جحورهم في مراكز الشباب والمجالس المحلية وقصور الثقافة بالضوء الثوري هو القادر فقط على الكشف عنهم.. ومثلما حكي في الميدان عن السويس.. يحكي في السويس عن تجربة الميدان.

قد يطالبهم بتجسيد حركي صامت عن عصر مبارك، مثل الذي عاينه في الميدان حين وقف يشارك الشباب تجسيد حال الشباب في عصر مبارك عبر أوضاع تمثيلية ثابتة صامتة.. ليتحول كل منهم إلى تمثال يمثل أيقونة للعصر، فهذا شاب تجمد على وضع تعاطي المخدرات، وذاك ثبت على وضع التسول، وثالث على وضع اليأس.. أو قد يطالبهم بإعادة تدوير المخلفات لتكون عملا فنيا مثل الذي شارك به في الميدان حين تحولت علب الكشري الفارغ المقلوبة على وجهها إلى تشكيل يحمل كلمة كنتاكي.. سخرية من زيف الاتهام الذي روجت له السلطة الآفلة بكون من في الميدان توزع عليهم وجبات كنتاكي.. فكانت علب الكشري الدليل الفني الدامغ على تهافت المعنى وتفاهة من روج له.. وفي النهاية يقطر لهم درس الميدان الأهم حين يتحول الإبداع إلى أسلوب حياة ونمط تعايش.

إعلام بلا سقف.. يحميه من المطر

الذين عاشوا حياة الميدان يعرفون أنهم كانت لهم وزارة إعلام معنية بهم وبحق، وتطورت وسائل الإعلام في الميدان تطور وسائل الإعلام في تاريخ الإنسانية، غير أن مرحلة الإعلام الشفاهي في الميدان لم تستغرق فترة طويلة.. فظهرت صحافة الميدان وإذاعات الميدان.. الكاتبة الشابة نرمين نـــزار خريجة قسم العلوم السياسية في الجامعة

الأمريكية والمحررة في مجلة "وجهات نظر" من علامات التدوين المصري، حيث تحولت مدونتها إلى كتاب له جاذبية معينة في الأوساط الشبابية.. ثلاثة روافد شكلت الضفيرة التي أثرت بها نرمين تجربة الإعلام في ميدان التحرير.. أولها خبرتها في العمل التنموي وبالتحديد في مجال اللاجئين لعدة سنوات.. ثانيها خبرتها الإعلامية.. ثالثا خبرتها السياسية كأحد ممثلي تيار التجديد الاشتراكي أحد مكونات ائتلاف شباب الثورة.

تفسر نرمين المفارق في 25 يناير عن كل ما سبق لها معايشته من أحداث سياسية، بكون أن من شارك هذه المرة لم يأت كالمعتاد لتسجيل موقف بل لصناعة حدث.. حقيقة مثلت حين رأت أن الجماهير تنال الرد المعتاد من القنابل المسيلة للدموع ومن هراوات العسكر، فلا ينفضون إلا ليعودوا من جديد.. وتلك الحالة هي ما استشعرها الداعون للحدث فطوروا من طموح تعريض الأمن لأعنف وأقوى مظاهرات شاهدها في تاريخه إلى شيء يفوق ذلك فكانت ببساطة ثورة.. وبدهي أن اللواء حبيب العادلي كخصم لم يقتض إذاعة أو جريدة لمواجهته.. لكن مرحلة عمر سليمان اختلفت نسبيا.. الإذاعة باتت ضرورة معيشية.. لكنها حسمت توجهها سريعا، فإما أن تستهلك نفسها في سبيل الرد على شائعات النظام وخرافاته وأباطيله: "الأجندات الأجنبية"، "مقام الرئاسة"، "الأغلبية الصامتة"... إلخ. أو أن يكون توجه الإذاعة لما يغطيه حدود بثها، وهو الميدان بما فيه ومن فيه.. وقد كان.

كانت الميكروفونات في الأيام الأولى.. ثم أضيفت سماعات ونظام صوتي.. غير أن زيادة أعداد المتوافدين تطلبت إذاعة حقيقية

تبرع بتكاليفها ممدوح حمزة فبنى لها مسرحا.. وطاقم عمل.. بين منظم للمواد التي تقدم.. وعناصر للتأمين.. واتساقا مع مبادئ الثورة كان المحتوى الذي يقدم تشاركيا ينفتح على كل أشكال الخطاب ولا يمنع أحدا من حديث، ولم يخرج أحد في كلمته عن التقاليد التي كانت تشع في جو الميدان.. ومن فوقها قدمت خطب جمعة.. ومن فوق مسرح الإخوان قدم قداس مسيحي.. كانت الروح عابرة لأي تحيز طائفي أو إقليمي أو حتى أيديولوجي.. وفي المرة الواحدة التي اشتمت فيها رائحة تمييز في دعاء حول من يبتغي غير الإسلام دينا.. لم يحتج مقدم الدعاء لأكثر من تنبيه.. تلك الرهافة هي التي صنعت للإذاعة مذاقها.. وتنوعت محتويات ما تقدمه الإذاعة بين الإخباري، كنقل أخبار الخارج التي كانت شبه مقطوعة عن الميدان.. إلى الخدمي المعيشي مثل ضياع طفل أو توزيع أدوار أو غيرها.. فإن اعتبرت ممارسات من هذا النوع فواصل.. فإن الركيزة الأساسية لما يقدم كان الكلمات السياسية والفقرات الفنية.. التي تنوعت أمزجتها الفنية بين كلاسيكيات تعود لسيد درويش والشيخ إمام ورموز الطرب النضالي إلى الراب مرورا بألوان الطيف الغنائي كافة.

على الجانب الآخر ولدت فكرة جريدة حملت عنوان "صوت الثورة".. ورغم أنه كان يطبع منها 50 ألف نسخة كانت تنفد بالكامل في سابقة لم تعرفها جرائد الميادين من قبل.. شارك في الإسهام في الجريدة كتاب كبار مثل بهاء طاهر.. وعنت الجريدة بالتعامل مع المتغيرات اليومية وصناعة رأي عام داخل الميدان.. خاصة في اللحظات الإشكالية، مثل تفويض الرئيس السابق صلاحياته لنائبه.. حيث بدا للحظة أن البعض قنع به كمكتسب..

وقد تخللت مواد الجريدة قصائد لشعراء شباب.. لكن الابتكار والإبداع الذي هو روح الميدان بمن فيه عرف طريقه كذلك في الوسائط الإعلامية.. فبطول سطح عمارة انسدل ملصق إعلاني ضخم وضعت عليه مطالب الثورة، ليكون أضخم بيان طالعته العين يوما.. ثم ابتكار بشري تلقائي تجلي في طريقة أداء مميزة لشاب مبدع هو محمد عواد، الذي توصل صوتيا لممر آمن بين الخطاب السياسي والأداء الفني، حين كان يقدم المحتوى السياسي على طريقة مقدم البرنامج في الأفراح الشعبية ذلك الذي يتلقى هدايا مجاملة العروسين النقدية "النقطة" فيحيي مقدمها بطريقة مميزة.. وقد تميزت تلك الطريقة وانتخبتها الجماعة الشعبية في ميدان التحرير أسلوبا للهتاف.. هنا "أسكتش" سياسي وهتاف فني معا.

نرمين ترصد لحظة فارقة في تاريخ الميدان، وهي لحظة الأمان الأهم بعد انكشاف خديعة الخطاب المضلل الذي أعقبته معركة الجمل أو معركة ميدان الشهيد.. وهنا انكشف للمواطن العادي أنه كان بالأمس أسير ابتزاز وتسول عاطفي كاذب.. فالرئيس يستعطفه بالأمس ثم يعود فيجلب على الثوار السلميين خيله وبغاله وصبيحة خطابه.. حدثت النقلة النوعية حين أحس الرجل العادي بأنه يخدع للمرة الألف فتوافدت الملايين.. ولم يردعها رادع.. حينها انتصر صوت الميدان.. واختفى للأبد صوت الرئيس.



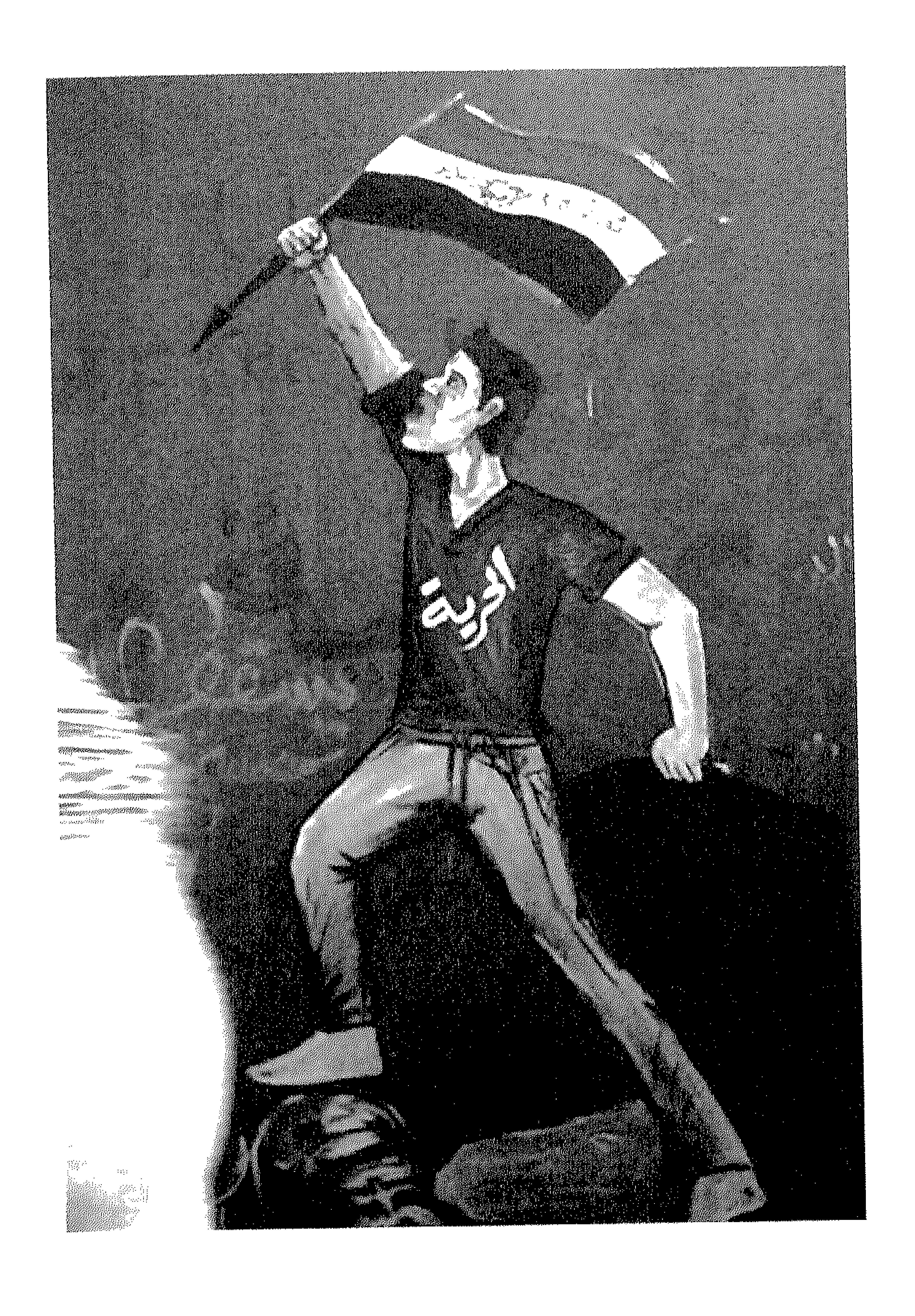
كلية التربية النوعية بجامعة عين شمس.. شهر مارس 2011..

نتاج ورش التدريب العملي في المدارس.. استلهام الثورة المصرية..

إشراف الطالبة الفنانة شروق صبحي

إزالة آثار العدوان

في اللحظة التي وصل فيها الوضع في ميدان التحرير إلى مرحلة الاستتباب.. وفشلت كل محاولات اقتحامه.. وحمى العُزل بإرادة الممانعة كرامة بلادهم وسمعتها.. كان يمكنك أن تعبر الميدان آمنا فتطالع خياما متراصة للسكن والمبيت.. ومستشفى ميدانيا.. وأحجارا ملونة على الأرض رصت تحمل رسائل تطالب بالرحيل.. وصغارا يتعلمون فنون الرسم والتلوين في ورش منتظمة.. وثلاثة مسارح تعلوها ثلاث إذاعات تعمل بكامل طاقتها.. تقدم فقرات فنية تتنوع بين التمثيل والسرد والغناء وإلقاء الشعر والموسيقى المجردة، بين الحديث للجماهير وإلقاء البيانات.. أعلن عن ائتلافات واتحادات وروابط سياسية ومهنية وفنية، فبالقرب من واجهة كنتاكي حيث تراصت أعمال فنانين تشكيليين يقف الأستاذ زكي خلفة من البحيرة مؤسس رابطة فناني الثورة ليحاجي ويشرح أفكار الرابطة وطموحاتها.. وعلى مدخل آخر وقفت لجنة أدباء وفنانين من أجل التغيير حول الناشر محمد هاشم لتضيف للمشهد.. وعلى مسارح الميدان وقف فنانو النقابات والأكاديميات الفنية يتبرؤون من نقابائها.



ميدان التحرير.. الأسبوع الأول من فبراير 2011..
تصوير جداري على حوائط الحمام المقام في الميدان للثوار..
تصميم وإشراف وتنفيذ الفنان صبحي الحجار
وبمشاركة الثوار في مهمات التنفيذ

وسط هذا المجتمع الاستثنائي الطوباوي وقف فنان في معطف أبيض وبجواره ابنته يمارسان عملية تصوير جداري على جدران خشبية لم يكد العمال يفرغون من بنائها.. الفنان هو صبحي الحجار مدرس التربية الفنية الأربعيني والفنانة التي تصحبه هي شروق صبحي ابنته والدارسة بإحدى الكليات الفنية.. تسألهما ما الذي يفعلانه.. فيجيب الأب بأن العمال فرغوا من بناء دورة مياه "حمام" للثوار لعلهم أرادوا بذلك أن يثبتوا للمتشبث بالسلطة كيف أن ميدان التحرير ليس معبرا أو نقطة مرور.. إنه حياة بأكملها ستستمر هنا حتى تنتزع المطالب.. تتعجب لماذا يبذل فنان كل هذا الجهد في تزيين واجهة دورة مياه.. فيبتسم هو بتصالح لا يحد ويجيب.. لأن الثوار يستحقون أن يجدوا كل ما أمامهم جميلا.. تخفف له ابنته الألوان وتناوله الفرشاة وتنقل له رغبات المحيطين بهم من جمهور اللحظة.. يريدون أن يحمل هذا الفتى علما.. فيستجيب الفنان لجمهوره المشارك.. وذاك لعمري فن الثورات.. ويبقى السؤال: هل يحفظ القادم الطرز الجمالية التي انبثقت في الميدان في لحظة الوهج الثوري؟ أتصير مادة للاستلهام الفني للقادم؟ أم يمحى كل ذلك بذهنية لم تعتد التجديد و لم تتهيأ بعد لاستيعاب استثنائية.. استغفر الله، بل فرادة تلك اللحظة؟!



كلية التربية النوعية جامعة عين شمس.. شهر مارس 2011..

نتاج ورش التدريب العملي في المدارس.. الوحدة الوطنية في الثورة المصرية..

إشراف الطالبة الفنانة شروق صبحي

منذ اليوم الأول للثورة كانت صدمة السياسيين والمحللين والناشطين التقليديين، طوفان من البشر يدفعه طوفان من الوعي التلقائي، شارع لم يتعلم معنى التظاهر السلمي قابل القمع الأمني ورصاصات الجنود بالورود والهتافات السلمية، وفي الميدان لم يُرفع شعار أيديولوجي أو جبهوي أو طائفي، رغم أن الميدان امتلأ مرات ومرات بالأيديولوجيين والجبهويين وطوائف من هنا وهناك. كانت الثورة يافطة الجميع، وأيديولوجية الميدان، والطائفة التي انضم إليها المسلمون والمسيحيون واليساريون والإسلاميون والليبراليون والأهم.. المستقلون.

لم يتجاوز الشارع السياسيين وحسب، وإنما تجاوز مرحلة الوعي ليخلق قيما خالصة له وحده وكأنه ولد على متاريس الثورات، وُلد وقد رُكبت في ذهنه خريطة معلوماتية قاد بها الثورة، وقاد بها السياسيين ليتصدر وحده الفعل الثوري، وليترك لكثير من السياسيين القدامى كاميرات الإعلام، وأفخاخ التفاوض، وشرف الجلوس على طاولة النظام..!!

سقط الاستبداد فسقطت معه الحزبية والجبهوية والطائفية و«الأنا» و«الآخر» وخرافة الدولة الدينية، وقامت الحرية فقامت معها التعددية والتنوع والوحدة و«نحن» و«الجميع» و«الوطن» و«مصـ...

مات في الثورة مينا وبطرس ومحمد الصاوي وسالي زهرا... وحمادة لبيب وفؤاد عبد الملاك، وليزا محمد حسن و... ومسيحيون ماتوا من أجل الوطن، لكن الوطن لا ... مصريون.

ISBN 978-614-01-0320-7

9 786140 103207

مركز الجزيرة للدراسات
ALJAZEERA CENTER FOR STUDIES



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com